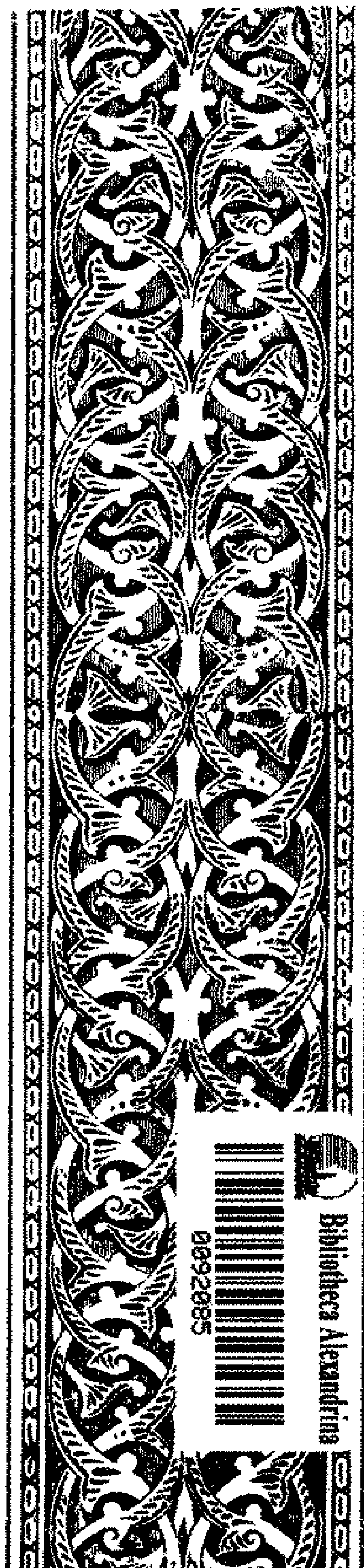


صلح الإمام الحسن

أسبابه نتائجه



محمد جواد فضل الله

صلح الإمام الحسن

مشخصات الكتاب
اسم الكتاب : صلح الامام الحسن (ع)
المؤلف : محمدجواد فضل الله
العدد : ۳۰۰۰ نسخه
الناشر : دار المثقف المسلم
المطبعة : نمونه
ايران / قم

محمد جواد فضل الله

صلح الإمام الحسن عليه السلام

أسبابه نتائجه

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ـ وصلى الله على محمد وعلى
آله الطاهرين

المؤلف

في سطور

ولادتـــه : ولد سنة ١٣٥٧ هجرية في النجف الأشرف العراق .

والده : آيـــة الله السيد عبد الرؤوف فضل الله الذي يعد من اعاظم فقهاء الطائفة الاسلامية الشيعية ومن الشخصيات المعروفة بالقداسة والتقوى والورع .

دراسته : درس في النجف على أخيه السيد محمـد حسين فضل الله فيما يُعرف بمستوى المقدمات والسطوح في الدراسة النجفية ، ودرس الفقه والاصول في مرحلة دروس الخارج على علمـاء النجف الكبار ومنهم السيد محمــد الروحاني والسيد نصرالله المستنبط والمرجع الديني الأعلى السيد ابو القاسم الخوئي

تلمذ عليه الكثيرون من طلاب العلم في النجف من اللبنانيين والعراقيين وغيرهم .

كان يتميز بالروح الانسانية الرائعة التي تجعله يعيش هموم الفقراء من طلاب العلم وغيرهم فيعمل على سد حاجتهم وحل مشاكلهم بمـا يملكه من الوسائل العملية من خــلال علاقاته الوثيقة بالمراجع والمحسنين من التجار المؤمنين ، وقد يصل بــه

الأمر الى حدود الايثار كان قوياً في ذات الله ، شجاعاً في قول الحق ، وفي الوقوف في مواقفه الصلبة ، بعيداً عن كل نوازع الاغراء ، وقــد كلفه ذلك جهداً كبيراً في حياته الاجتماعية ، واضطهاداً من قبل بعض الحكام حتى قاموا بسجنه وابعاده .

اعماله الاجتماعية : قام بتأسيس مشروع مؤسسة النادي الحسيني في منطقة حي السلم في بيروت التي كان يقيم الصلاة ويلقي المواعظ ويؤدي رسالته الدينية الاسلاميــة فيها .. ويشتمل المشروع على حسينية ومسجد ومدرسة لطلاب العلم الديني ومكتبة عامة ومستوصف خيري وبيت للعالم الديني المقيم في المشروع (وقد توفي قبل اكماله) ومــا زال العمل جارياً فيه حتى الآن .

كان شاعراً جيداً وكاتباً ممتازاً ، وباحثاً تاريخياً محققاً ، وخطيباً مفوهاً ، وكان يتميز بخلق رفيع جعل منه شخصية جذابة محبوبة في كل المجتمعات التي عاش فيها وذلك من خلال أريحيته الفياضة باللطف والحيوية والانفتاح . . وكان معروفاً بالوفاء لاصدقائه الى مستوى الايثار .

مؤلفاتــه : ترك خمس مؤلفات :

١ — صلح الحسن — هذا الكتاب —

٢ — الامام الرضا

٣ — حجر بن عدي الكندي
٤ — الامام الصادق
٥ — ديوان شعر

اولاده ترك اربعة اولاد ذكور .

وفاته . توفي أثر نوبة قلبية حادة في اثناء نومه في يوم ٢٣ رجب ١٣٩٥ هـ الموافق ١ آب ١٩٧٥ وقد شيع تشييعاً مهيباً الى مدفنه في بنت جبيل — جنوب لبنان واقيمت له الفواتح في العراق وايران ولبنان كما اقيمت له حفلة تأبينية في الاسبوع وفي الاربعين تحدث فيها الأدباء والشعراء والعلماء حول مناقبه ومكانته .

تغمده الله برحمته وأسكنه فسيح جنته .

دار الزهراء

بيروت — لبنان ١٠ جمادى الثانية ١٣٩٩ هـ

في رحاب السيد محمد جواد فضل الله

بقلم : السيد علي ابراهيم

آمنت بأن للعبقرية مناخا وتربة ، تعرف ذلك من شذا النبت ورواته ، وكأنك تحس بالأصيل المربى على خبز المعرفة السائر في دروبها ومنعطفاتها ، وبالدخيل الذي جاء فلتة الشوط وابن الصدفة والمقادير ، وبين هذا وذاك يقف الفكر حائراً كما أشرت لذلك بقولي :

عجباً لأمر الفكر تصرعه الرؤى
ويحب دوماً أن يطل فيصرعا
ما انفك يجري في مجال متعب
يسعى فيعجز في الطريق اذا سعى
شكلين يبصر في جمال رائع
والطيب حل بواحد متضوعا

وآمنت بأن الافذاذ تعاجلهم المنية قبل اكمال رسالتهم وبث ما يختلج في صدورهم ، استعرض في ذهني هـؤلاء الذين بعثوا اصواتهم قوية منعشة وسرعان ما ذهبوا عجالى والكلمة لم تزل في افواههم والخاطرة في صدورهم تفيض آسى وحسرة ، وكأنهم عندما انطلقت أصواتهم في دنيانا هذه أدركوا برهافة حسهم ونفاذ نظرتهم ان أيامهم قليلة معدودة فاعطوا عطاء مودع سخي رفعت له الحجب عما وراء الأبعاد من حقائق لا ترى بالعين العادية ، عرف مصيره فزود الحياة وأبناءها بالخالد الباقي والشهي الممتـع ، وقبـل جولتي القصيرة في رحاب الفقيد العظيم السيد محمد جواد فضل الله لا بد لي من المامة بتراثه القريب المعروف عند العامليـين كافة والذي أثر بنشأته وطبع شخصيته .

(١) وقف جده علم الاعلام السيد نجيب فضل الله الذي ثنيت له الوسادة ونال المرتبة الاولى بالعلم والدين في وجه أقوى زعيم عرفه جبل عامل منتصراً عليه لمـؤمن بسيط ، وقرعه برسالته الخالـدة التي لم تزل في النفوس والأذهان ، مع ان المألوف يومذاك الاتفاق التام بين العلماء والزعماء، فهذا يخضع ويقبل اليد، ويمارس أنواع الاحترام الصوري مردداً (الزعماء تراب أقدام العلماء) وذاك يوصي بطاعة أولي الامر والسير في ركابهم ، لان المعارضة تسبب الاضطراب والفوضى حسب ما يرى ، وكان طيب الله ثراه مثلا فريدا للعالم المؤمن المجتهد ، وقد أسس في (عيناثا) مدرسة علمية دينية أطلعت الأقمار والشموس ، ومما هتف

به على قبره العلامة الشاعر الكبير الشيخ عبد الحسين صادق :

لمخط رمسك يا أعز صديق
وقفت معاجا به هوادي النوق
يا ظاعناً والمكرمات مسايرا
لمواكب التحقيق والتدقيق
ومزامل التقوى نقياً جيبها
لم تعتلق فيها قذاة علوق
أزمعت والجدوى فلم ترشح يد
بندى ولا عود الرجا بوريق
فلتذهب الايام بعدك مالها
من غرة وهاجة التأليق

(٢) عمه السيد محمد سعيد فضل‌الله من اتفقت كلمة أهل الفضل على تقدير علمه وخلقه ودينه وتوفي وهو على وشك الحصول على المرجعية الكبرى في النجف الأشرف كما لمحت لذلك في تأبينه .

لما دنا منك المنال وصرت في
رهج الطليعة فوق دست القائد

ومشيت بالنقع المثار مناضلا
من فيض نورك شع ليل الجاحد
وتلفتت غلب الرجال فأبصرت
بك من معاني الفضل معنى الواحد
ناداك ربك فانثنيت مغادرا
هذي الحياة وذاك شأن الرائد

وأومأ اليه المرحوم العلامة الشاعر الشيخ عبد الكريم صادق :

يا بن النجيب وانت أكرم سيد
هو للنجابة عاقد حبراتها
ما زلت طلاب الرقي الى العلى
حتى استويت على ذرى درجاتها
ونظرت في دنياك نظرتك التي
كشفت لك المخبؤ من خدعاتها
لم تجتذبك لها زخارفها التي
هي كالسراب يلوح في خلواتها
ورفعت قدرك ان يضيع وانه
ليضوع كالأزهار في جناتها

(٣) عمه السيد عبد اللطيف فضل الله حفظه الله ، ولم أر أجل منه في نفوس عارفيه ، مع انه لم يعتمر العمة العراقية ويلبس العباءة الايرانية ويطيل لحيته بالمقدار المطلوب من العلماء المقدسين ، ولكن الايمان الصادق ونفحات المروءة ومكارم الاخلاق أنارت فكره وقلبه وبعثت لوجهه هذا الرونق والبهاء ، وهو مع ذلك شاعر ترف المعاني الحسان على ألفاظه الرشيقة فيأتي بالرائع المبدع ويسير في طليعة الشعراء بمثل هذه الدرر المنتقاة التي خاطب بها شيخ جبل عامل مؤسس العرفان المرحوم الشيخ احمد عارف الزين .

أعصارة الخير الوفير ولمحة
مما حواه العرب والاسلام
لا كان يومك للصحافة انه
يوم به تتنكس الاعلام
خلعت سماء الفكر فيه رواءها
وانحط عنه البدر وهو تمام
ان الألى شقوا ثراك وحوله
طافوا بأجنحة القلوب وحاموا
يتهافتون بها لمصرع ضيغم
ما خانه الأخوال والاعمام

غرسوك في قلب الحفــاظ لتجتني

أدبــاً بـــه تنفتـــح الاكــمام

(٤) أبوه السيد عبد الرؤوف فضل الله حفظه الله ، وماذا اقول عن ابيه ، وهو من القلة النادرة التي ترتفــع بالنفس الانسانية لمستوى الرسالة ، لا يقوى على غير العفه والورع والمحبة والصفاء ، لو تمثل الدين رجــلا لكانه ، ولو آراد العلم آن يفتخر بمن يزينه لما وجد أولى منه ، هو من الأدلة على غنى العالم المخلص عن الدعاية فالحقيقة تدل على نفسها .

اذا اشتبكــت دمــوع في خدود

تبـــين مـــن بــكى ممـن تباكى

(٥) أخوه السيد محمد حسين حفظـه الله ، الذي ينحدر عنه السيل ولا يرقى اليه الطير ، وانني لم أقرأ أبيات المرحوم الشيخ ابراهيم يحي في العالم العاملي الا ذكرته .

أو عـــالم حبــر اذا باحثتـــه

حشد المحيـط عليــك بالغمــرات

واذا اقتبســت النور من مشكاته

اهدى اليــك البــدر في الظلمات

وفد على بيروت فكان فيها صوت العلم، وأبا المشاريع

الدينية ، وحارس العقيدة ، وقائدا لا يعتسف الطريـق ولا تلتوي أمامه السبل ، ولا يزال نجمه في تألق حتى يصـل بالركب لشاطىء الامن والسلامة .

وأعود اليك يا صاحب الأئمـة ، الحسن بن علي ، وجعفر الصادق ، وعلي بن موسى الرضا ، ورفيق حجر في ألق الشهادة ، أعود اليك والذكرى تشتعـل في قلبي فيعجز الفكر عن البث ، كنت آخر جليس تحدثت معه عن أحلامك وآمالك في الليلة التي أزمعت فيها السفر ، أتعلم أن هاجسا أوحى لي وانت تودعني أن لا لقاء بعد بيننا ، فلمحت النهاية من وراء حجب الغيب وحسبت المسافر هـو أنا ، من تعبت قدمه من المسير ورأى في السنين الطويـلة التي عاشها آماله مبعثرة على جوانب الطريـق لا انت ، الفتى الذي يتوثب الطموح في نفسه فيبعث المضاء والعزيمة، أهتف بك الآن ، من دنيانا الغبية التي عرفتها وبلوت حلوها ومرها بنداء بعثته في أثر صديق حبيب سافر وبقيت .

ايهـا الراحـل الكريم تمهـل
ضـاع في زحمة النوائـب عمري
شـدني للقـا وداد قديـم
وكرهـت البقـا ببيـداء قفـر
سيجـوز الصراط ركـب عـلي
ونكـون الحـداة والركب يسري

ايهـا الراحـل الكريـم سلامـا

من لآلٍ تركـت في كـل سطـر

من صديـق يراك عـبر المنايـا

روعـة الملهمـين في كـل ثغـر

أو أردد شعرك الذي قلته بفقد قريب لك عزيز على قلبك كان قدره مأساة لمن بقي بعده .

مشى على مسرح الجلى بنـا القدر

فصـوح الربع والتاحت به الذكر

وأقفـرت من أزاهـير الحمى أكم

تضوع الحلم فيها وازدهى السمر

كانـت غلالـة عيش يستهـل بها

من الحيـاة ربيـع وارف نضر

فأقفر الحي من علبائـه وخبـت

شمس تألق من ايماضهـا العصر

في كل يـوم لنـا عرس نـزف به

الى المنايـا شبابا عرسـه القـدر

قرأت كتبك يا صديقي وودت لو يستفيـد منهـا أولئك المؤلفون النجـار الذين يهمهم المورد ولا يعنيهم

التوفيق والابداع ، يعبثون بأنفسهم وبالقارىء ، ولهم مع التأليف قصة طويلة ، التجأوا اليه بعد فشلهم في شتى الميادين فجعلوا منه حرفة يتصيدون بواسطتهاالمال ، اما أنت أثابك الله ووسع لك في دار الخلود ، فقد عرضت فكر لثوقلبك وايمانك شأن الرائد الناجح الشفوق .

وعدت لدين الله تتلو كتابه
بنظرة ريان من الفضل أوحدي

يحوم على المعنى الدقيق فتنجلي
له الحجب عن سر الجمال المجرد

فارسلتها غراء وضاحة السنا
حرست بها الاسلام من كيد ملحد

تطوف مع الصبح البهيج رسالة
تسير وخيرا سار في كل فدفد

عرفتك شاعرا رفع اللفظة لمستوى الفكرة وسار بهما مبدعا لا يمله القادر على مرافقته في جوه ودنياه ، وانسانا عب من التراث المشرق حتى ارتوى فكان ريا للظامئين ونورا يستضاء به في ليل الجهالة الأليل ، ومؤلفا لله هو من متوثب للذرى ، يسير قدما ولا يلوي على شيء حتى يدرك الغاية التي يريد ، تطيعه الكلمة وتسمو لديه الفكرة ولا بد لي في يومه الأغر من الصلاة في محرابه والاستماع اليه وهو يقول في كتابه حجر بن عي :

وقد عانت الامة كثيرا من مآسي الصراع الضاري في المواجهة الصعبة بين القوى التي تنحو في اتجاه الانحراف فكرا واسلوبا وعملا ، وبين القوى التي تلتزم الخط الرسالي عقيدة وسلوكا ومنهجا في العمل .

ومن الطبيعي آن يكون موقف القوة في جانب الحكم ... بتاثير السيطره الفعلية التي يمتلكها والتي تقيد حريه القوى الاخرى في حركاتها المضاده وتفقدها القدره على العمل . ولكن ذلك الموقف القوي للحكم بما يملك من سلطه حازمه لا يعطي للفكرة التي يتبناها قاعدة ثابتة ينفعل بها الفكر العام للامه .. بحيث تصبح دينا تؤمن به وتلتزم بمعطياته . اذ الاقتناع بالمبدأ هو الاساس الذي يعتمد عليه البناء العقائدي والفكري في جميع مراحله ، والذي هو الضمانة الكبرى لديمومته وبقائه ، وليس هو القوة والسيطره والعنف والمبدأ الذي يقوم اساسه على مثل هذا ..: يتحدد امتداد بنائه بالتوقيت الذي ينتهي به الحكم ... وتتلاشى به سلطته ولكن ذلك لا يمنع من أن يترك السلطان فيما يتبنى من فكرة جيوبا في الوسط الاجتماعي تؤمن بقاعدته وتلتزم بمبادئه ، في غفلة عن الواقع النظري والعملي للفكرة المضادة... والتي هي هنا ليست الا الرسالة الاسلامية بواقعها السليم .

كثر الكلام يا صديقي ، وحفلت المطبعة بالمؤلفين والممثلين ، وعكف لصوص الفكر والمواهب على انتاج الناس وتراثهم ينقلون ويسرقون ، وبين الركام الذي رأيناه

توهج قلمك وبدا منهجك العلمي منـــارة نصبت لهدايـــة السارين وجاءت كتبك وليدة الجهد الصادق والعلم الغزير والموهبة التي تطل على الوجـــــود ومن فيـــه من القمم الشامخة ، فلا تتعثر بين الربى والوهاد ، فحق لاخيك العلم ان يردد في ذكراك ما قاله شفيق المعلوف في رثـــاء اخيـــه فوزي :

أهويـــت أبحـــث عنـــه في الترب

تـــاج تـــدحرج عـــن جبـــين أبي

وهيهات ان يجد هذا التاج فودائـــم التراب لا ترد ونحن معه في لوعته وحنينه .

ان جرحـــــا ســـال من جبهتـــــه

لثمتـــه في خشـــــوع شفتانـــــا

السيد علي ابراهيم

مقدمه

يعتبر صلح الإمام الحسن مع معاوية أخطر حدث في حياة الإمام توفر على دراسته الباحثون ، واختلفوا في تقييمه والحكم عليه ولعل البعض منهم فيما كتب انغلق على نفسه في حدود مسلكية معينة ، مما دعاه لعرض الأسباب بصورة هي أبعد ما تكون عن الواقع التاريخي للحدث .

كما أن اضطراب بعض النصوص وتضاربها في حكاية الأحداث التي حفلت بها تلك المرحلة ، أدى إلى تسرب شيء من الغموض في تحديد المواقف وفهم العوامل التي قضت إلى أن يصير الإمام لإمضاء الصلح .

كما إن اهمال بعض المؤرخين لبعض التفصيلات ، واجمالهم للحادثة قد يبرزها بصورة تؤيد بعض وجهات النظر المتحيزة إلى جانب دون جانب وربما يعتبره البعض مصدراً يعتمده في دراسته ويبني عليه استنتاجه .

ومن ذلك ما نقله لنا ابن حجر الهيثمي في صواعقه عن البخاري عن الحسن البصري ملخصاً للحادثة في أن معاوية أرسل

للحسن رجلين من بني عبد شمس هما عبد الرحمن بن سمرة وعبد الرحمن بن عامر ، فعرضا عليه الصلح ، وطلبا منه شروطه ، فقبل واشترط ، وضمنا له الوفاء ، فصالح[1] .

ولكن ما هي الأسباب التي أدت إلى الصلح وقبوله ، مع انه كان يملك جيشاً في كتائب كالجبال ، كما عبر به ابن حجر ؟

ذلك ما لم يتعرض له .

ويأتي بعد هذا من يعتمد نقل ابن حجر ، فيتجنى على التاريخ بتحميل الإمام مسؤولية الصلح وتسليم الأمر لمعاوية ، واعطائه قياد الأمة ، وأنه كان يرغب في التخلي عن مركز الحكم ، تهربا منه من مسؤوليات الحرب التي لا تحتملها نفسه المسالمة ، كما يوحيه هذا العرض للحادثة من ابن حجر .

ونحن في دراستنا هذه لم نحاول التقيد بنص تاريخي معين ، دون أن نعرض لما يقابله من النصوص بالمناقشة والتمحيص ، لو كانت هناك معارضة ، حتى نتمكن من حفظ العرضَ الموضوعي لتاريخ الواقعة .

والذي أهمنا كثيراً في دراستنا هذه ، هو البحث عن الجذور البعيدة التي تخترق عمق الاحداث والملابسات التي أدت بالإمام إلى قراره ، ومن ذلك دراسة الحالة النفسية للمجتمع الكوفي في

---

(١) الصواعق ابن حجر ص ١٣٤ .

تلك المرحلة وما قبلها ، وتحديد وجهتها ، واعطاء بعض النماذج الصريحة التي تعكس لنا واقعها بصورة جلية ، وعلاقتها الوثيقة في اتخاذ ذلك القرار .

ومن ذلك أيضاً دراسة طبيعة الجيش الكوفي ، في كفائته الحربية من الناحية المعنوية والانضباط العسكري ، الذي يفترض أن يتمتع بهما أي جيش يعده قادته للمعركة .

ثم دراسة العوامل الأخرى التي شاركت في فرض قرار الصلح على الإمام ، دون أن تبقي له حرية اختيار أي قرار آخر .

ولا أدعي اني أتيت بشيء جديد ، بل هي جدّة العرض ومنهجية الأسلوب ، في محاولة أرجو أن أكون قد وفقت إليها ، معطياً للبحث حقه ، وفاءً لأمانة التاريخ . .

والله ولي التوفيق وهو حسبنا ونعم الوكيل

محمد جواد

لمحات من سيرة الامام

« واعظم بإنسان ، جده محمد ، وابوه علي ، وأمه فاطمة » .

« وأي فخر بعد هذا لمفتخر ، وأي مجد بعده لإنسان » .

الإمام الحسن (ع) *

نحن هنا . لسنا بصدد بيان سيرة الإمـــام الحسن عليه السلام والإحاطة بجميع الجوانب الحياتية ، التي حفلت بها ، فإن ذلك يحتاج إلى كتاب كبير ، ربما ساعدنا التوفيق لكتابته في المستقبل وموضوع دراستنا هذه ، هو بحث واقعة الصلح ، وما رافقها من ملابسات واحداث ، وتجلية بعض ما خفي على جمـــلة من الباحثين ، من العوامل والأسباب ، التي دفعت بالإمام لإمضاء الصلح ، وتسليم الأمر لمعاوية .

ولكن لا بـــد من عرض صورة اجمالية لسيرته ، من حين ولادته ، إلى حين وفاته ، وبيان بعض ما امتاز به من مناحي العظمة والجلال .

(*) اعتمدنا في هذا الفصل على مروج الذهب للمسعودي ، وشرح النهج لابن ابي الحديد والصواعق المحرقة لابن حجر الهيثمي ، والعقد الفريـــد لابن عبد ربه . وأعيان الشيعة للسيد الأمين .

ولادته : ولد الإمام أبو محمد الحسن بن علي بن أبي طالب ، ثاني أئمة أهل البيت ، وأول السبطين ، سيدي شباب أهل الجنة ، في المدينة المنورة ، ليلة النصف من شهر رمضان المبارك ، على الصحيح المشهور ، بين الخاصة والعامة ، سنة اثنتين أو ثلاث من الهجرة ..

وعند ولادته ، طلبت أمه فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، من أبيه «علي» أن يسميه ، فقال : ما كنت لأسبق رسول الله ﷺ ، فجاء النبي ، فأخرج إليه ، فقال : اللهم إني أعيذه بك من الشيطان الرجيم ، وأذّن في أذنه اليمنى ، وأقام في اليسرى ثم سماه حسناً ـ ولم يكن يعرف هذا الإسم في الجاهلية ، كما في أسد الغابة .

أولاده : كان له خمسة عشر ولداً ، ما بين ذكر وأنثى ، من امهات شتى ولم يعقب منهم ، غير الحسن وزيد .

نشأته : ولد ونشأ في كنف جده النبي ﷺ ، وفي رعاية أبيه علي ، وأمه فاطمة ، وهو أول ولد يولد من سلالة الرسالة ، ليحفظ الله به وبأخيه الإمام الحسين ، نمو تلك الشجرة الطيبة ، التي أصلها ثابت ، وفرعها في السماء .

وهبه جده العظيم ، من الحنان والمحبة ، ما رقّ به طبعه ، وصفت به ذاته ، وابتعدت به عن دوافع الغلظة نفسه ، فكان الحلم من ابرز صفاته ، والمحبة للناس من أروع مشاعره .

ورعاه جده العظيم ، بعينه وقلبه ، فهو قطعة من وجوده ، وومضة من روحه ، وصورة تحكيه .

وورّثه هيبته وسؤدده ، حتى فرق منه اعـــداؤه ، وأعظمه مخلصوه وأحباؤه .

وأعظم بإنسان ، جده محمد ، وأبوه علي ، وأمه فاطمــه ، وأي فخر بعد هذا لمفتخر ، وأي مجد بعده لإنسـان .

صفته : عن الغزالي في الإحياء ، إن النبي ﷺ قال للحسن : اشبهت خَلقي ، وخُلقي .

وعن المفيد في الإرشاد : كان الحسن ، أشبه الناس برسول الله خَلقاً ، وهيأة ، وهدياً ، وسؤدداً .

وفي أسد الغابة ، بسنده إلى أنس بن مالك : لم يكن أحد أشبه برسول الله من الحسن بن علي :

ووصفه ابن الصباغ المالكي ، في الفصول المهمة ، مرفوعــاً إلى أحمد بن محمد بن أيوب المقبري وغيره ، قالوا :

كان الحسن عليه السلام ، ابيض اللون ، مشرباً بحمرة ، ادعــج العينين [1] ، سهل الخدين ، دقيق المسربة [2] ، كث اللحية ، ذا

---

(١) العين صارت شديدة السواد مع سعتها .
(٢) الشعر وسط الصدر إلى البطن .

وفرة [١] ، كأن عنقه بريق فضة [٢] ، عظيم الكراديس [٣] ، بعيد ما بين المنكبين ، ربعة ، ليس بالطويل ولا بالقصير ، مليحاً ، من أحسن الناس وجهاً ، وكان يخضب بالسواد ، وكان جعد الشعر [٤] حسن البدن .

صفاته : قال المدائني : كان الحسن بن علي أكبر ولد علي ، وكان سيداً سخياً حليماً ، وكان رسول الله يحبه .

وعن واصل بن عطاء : كان الحسن بن علي ، عليه سياء الأنبياء ، وهيبة الملوك .

وعن محمد بن إسحاق ، كما رواه الطبرسي في أعلام الورى ، قال : ما بلغ أحد من الشرف ، بعد رسول الله ﷺ ، ما بلغ الحسن بن علي ، كان يبسط له على باب داره ، فإذاخرج وجلس، إنقطع الطريق ، فما يمّر أحد من خلق الله إجلالاً له ، فإذا علم، قام ودخل بيته ، فيمر الناس .

قال الراوي : ولقد رأيته في طريق مكة ، نزل عن راحلته فمشى ، فما من خلق الله أحد إلا نزل ومشى ، حتى رأيت سعد بن أبي وقاص ، قد نزل ومشى إلى جنبه .

---

(١) الشعر إلى شحمة الاذن .
(٢) أي سيف فضة في البريق واللمعان .
(٣) كل عظمين التقيا في مفصل فهو كردوس مثل المنكبين والركبتين.
(٤) الجعد ضد السبط .

ويقول إبن حجر الهيثمي في صواعقه ، كان رضي الله عنه سيداً ، كريماً حليماً ،ذا سكينةووقار وحشمة ،جواداً ممدوحاً.

فضائله : وهي أكثر من أن تحصى ، ويكفي في ذلك ، ما ورد عن جده من الروايات الناطقة بفضله ، والتي تعكس لنا عظمته وجلاله .

أخرج الترمذي والحاكم ، عن أبي سعيد الخدري قال : قال رسول الله : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة .

وأخرج البخاري عن ابن عمر ، قال : قال النبي ﷺ ، هما ريحانتاي من الدنيا ، يعني الحسن والحسين .

وأخرج الشيخان عن البراء ، قال : رأيت رسول الله ﷺ والحسن على عاتقه ، وهو يقول : اللهم إني أحبُه فأحبَّه .

. وأخرج الترمذي عن أسامة بن زيد قال : رأيت رسول الله ﷺ والحسن والحسين على وركيه ، فقال : هذان ابناي وابنا ابنتي ، اللهم إني أحبهما فأحبّهما ، وأحبْ من يحبهما .

وعن أحمد : من أحبني وأحب هذين ـ يعني الحسن والحسين ـ وأباهما وأمهما ، كان معي في درجتي يوم القيامة .

إلى غير ذلك من الروايات ، التي وردت في حقه وحق أخيه الإمام الحسين ، التي تبرز لنا عظمتها وفضلها .

بعض مآثره : أخرج أبو نعيم في الحلية ، عن الحسن عليه السلام

انه قال : إني لأستحيي من ربي أن ألقاه ، ولم أمش إلى بيته ، فمشى عشرين حجة .

وأخرج الحاكم عن ابن عمر ، قال : لقد حج الحسن خمساً وعشرين حجة ، وان النجائب لتقاد بين يديه .

وأخرج أبو نعيم ، أنه عليه‌السلام خرج من ماله مرتين ، وقاسم الله تعالى ما له ثلاث مرات ، حتى انه كان ليعطي نعلاً ويمسك نعلاً ، ويعطي خفاً ويمسك خفاً .

وأخرج ابن سعد عن عمير بن اسحاق : انه لم يسمع منه كلمة فحش ، إلا مرة كان بينه وبين عمرو بن عثمان بن عفان خصومة في أرض ، فقال : ليس له عندنا إلا ما أرغم أنفه ، قال : فهذه أشد كلمة فحش سمعتها منه .

وعن ابن شهر آشوب في المناقب : ان الحسن عليه‌السلام مر على فقراء ، وقد وضعوا كسيرات على الأرض ، وهم قعود يلتقطونها ويأكلونها ، فقالوا : هلم يابن بنت رسول الله إلى الغداء ، فنزل وقال : فإن الله لا يحب المتكبرين ، وجعل يأكل معهم ، ثم دعاهم إلى ضيافته ، وأطعمهم وكساهم .

وغير ذلك من المآثر الأصيلة ، التي ورثها عن أبيه وجده ، وأطلقها نماذج حية للإنسانية ، لكي تسير على هديها ، وتلتزم بطابعها الأخلاقي الرفيع ، لتكون واجهة فذة ، لمجتمع إسلامي رائد .

من **أخباره** : رافق أباه في جميع مراحل حياته ، فكان الولد البار بأبيه ، السامع له ، المطيع لأوامره ، ولم يفارقه في جميع مواقفه ، بل نصره بسيفه ولسانه .

أرسله أبوه سفيراً عنه لأهل الكوفة ، لكي يستنهضهم ، ويستنفرهم لقتال أهل الجمل ، فأدى الرسالة ، وحفظ الأمانة ، وخطب خطبته المعروفة ، التي حركت في أهل الكوفة ، حماس الحرب ، وهزت في نفوسهم مشاعر النصرة .

وكان على ميمنة أبيه في يوم الجمل ، يدافع ويقاتل ، لإرساء دعامة الحق ، المتمثل بأبيه وصحبه ، ودفع غائلة الباطل ، المتمثل بالجمل وعصابته .

وشهد صفين ، وكانت له فيها مواقف لنصرة الحق رائعة ، منها ما نقله نصر بن مزاحم في كتابه صفين ، قال :

أرسل عبيد الله بن عمر إلى الحسن بن علي ، ان لي اليك حاجة فالقني ، فلقيه الحسن ، فقال له عبيد الله : ان أباك قد وتر قريشاً أولاً وآخراً وقد شنئه الناس ، فهل لك في خلعه ، وأن تتولى أنت هذا الأمر .

فقال : كلا ، والله لا يكون ذلك :

ثم قال : يابن الخطاب ، والله لكأني أنظر إليك مقتولاً في يومك أو غدك أما إن الشيطان قد زين لك وخدعك ، حتى

أخرجك مخلقاً بالخلوق ، ترى نساء أهـــل الشام موقفك ، وسيصرعك الله ويبطحك بوجهك قتيلا .

قال نصر : فوالله ما كان إلا بياض ذلك اليوم ، حتى قتل عبيد الله » .

وكان عليه السلام ، وصي أبيه أمير المؤمنين عليه السلام وولي أوقافه.

امامته : تولى منصب الإمامة بعد قتـل أبيه ، بتنصيب من قبل الله عز وجل وبنص من جده رسول الله صلى الله عليه وآله ، فقـد صح عنه صلى الله عليه وآله أنه قال: الحسن والحسين إمامان، قاما أو قعدا ، وبتعيين من أبيه عليه السلام ، وبايعه الناس بالخلافة ، وحصلت بينه وبين معاوية مراسلات حادة ، تعقبت بإعلان الحرب بينهما ، ثم حدثت بعد ذلك خطوب وأزمات ، شلت خطط الإمام في الحرب ، فصالح ، وسلم الأمر إلى معاويه ، كما سنعرضه عليك في دراستنا هذه .

وفاته : ثم عاد إلى المدينة ، ليقيم فيها ، منتظراً لأمر ربه ، حتى دست اليه زوجته جعدة بنت الأشعث بن قيس سماً ، بأمر من معاوية ، وتزيين منه ، كما سنقرأه عليك فيما بعد .

وباشر أخوه الإمام الحسين عليه السلام أمر تجهيزه ، وأخرجـه ليجدد به عهداً بجده رسول الله صلى الله عليه وآله ، ولم يشك مروان، ومن معه من بني أمية ، انهم سيدفنونه هناك ، فتجمعوا لذلـك ، ولبسوا السلاح ، وأقبلوا ومعهم عائشة على بغل وهي تقول :

« مالي ولكم ، تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحب » .

وجعل مروان ، يقول :

« يا رب هيجا ، هي خير من دعة ، أيدفن عثمان في أقصى المدينة ، ويدفن الحسن عند جده ، لا يكون ذلك أبداً ، وأنا أحمل السيف » .

وكادت الفتنة أن تقع ، بين بني هاشم ، وبني آمية . فقال الحسين :

« والله لو لا عهد الحسن بحقن الدماء ، وأمره لا أهريق في أمره محجمة دم ، لعلمتم كيف تأخذ سيوف الله منكم مأخذها وقد نقضتم العهد ، بيننا وبينكم وأبطلتم ما اشترطنا عليكم لأنفسنا » .

ثم مضوا بالحسن ، ودفنوه بالبقيع ، عند جدته فاطمه بنت أسد بن عبد مناف .

وانطوت بذلك ، أروع صفحة من صفحات الإمامة الحقة ؛ التي كانت رصداً ، تخافه أقزام الضلال .

قالوا بعد وفاته : ويستبشر معاوية بالنبأ ، وتطيب له الدنيا ، فقد مات من كان يخافه على ملك أمية ، في حين تعتصر قلوب المؤمنين ألماً ولوعاً ، يحدثنا التاريخ ..

ان عبد الله بن العباس ، وفد على معاوية ، قال :

« فوالله اني لفي المسجد، إذ كبر معاوية في الخضراء ، فكبر أهل الخضراء ثم كبر أهــل المسجد ، بتكبير أهل الخضراء ، فخرجت فاختة بنت قرظة بن عمرو بن نوفل بن عبد مناف من خوخة لها ، فقالت : سرك الله يا أمير المؤمنين : ما هذا الذي بلغك فسررت به ؟

قال : موت الحسن بن علي .

فقالت : إنا لله وإنا إليه راجعون ، ثم بكت ، وقالت :

« مات سيد المسلمين ، وابن بنت رسول الله ﷺ .

فقال معاوية : نعمًا والله ما فعلت ، إنــه كان كذلك أهلا أن تبكي عليه .

ثم بلغ الخبر ، ابن عباس ، فراح فدخل على معاوية .

قال : علمتَ يا ابن عباس ، أن الحسن توفي .

قال : ألذلك كبّرت ؟

قال : نعم .

قال : أما والله ما موته بالذي يؤخر أجلك ، ولا حفرتــه بسادة حفرتك ولئن أصبنا به فقد أصبنا قبـــله بسيد المرسلين وإمام المتقين ورسول رب العالمين ، ثم بعده بسيد الأوصياء ، فجبر الله تلك المصيبة ، ورفع تلك العثرة .

فقال : ويحك يا ابن عباس ! ما كلمتك قط إلا وجدتــــك مُعصداً .

.. ووقف محمد بن الحنفية أخوه على قبره فقال :

« لئن عزت حياتك ، لقد هدّت وفاتك ، ولنعم الروح روح تضمنه كفنك ، ولنعم الكفن كفن تضمنه بدنك ، وكيف لا تكون هكذا ، وأنت عقبة الهدى ، وخلف أهل التقوى ، وخامس أهل الكساء ، غذتك بالتقوى أكفُّ الحق ،وأرضعتك ثديُ الإيمان ، وربيت في حجر الإسلام ، فطبت حياً وميتاً ، وإن كانت أنفسنا غير سخية بفراقك ، رحمك الله أبا محمد » .

وقال ابن عباس : أول ذل دخل على العرب موت الحسن عليه السلام .

وقيل لأبي اسحاق السبيعي : متى ذلّ الناس ؟

فقال : حين مات الحسن ، وادّعى زياد ، وقتل حجر بن عدي .

وروى أبو الحسن المدائني ، قال : أول من نعى الحسن بالبصره عبد الله بن سلمة ، نعاه لزياد ، فخرج الحكم بن ابي العاص الثقفي ، فنعاه ، فبكى الناس — وأبو بكرة يومئذ مريض — فسمع الضجة ، فقال : ما هذا ؟

فقالت امرأته ميسة بنت سخام الثقفية : مات الحسن بن

علي ، فالحمد لله الذي أراح الناس منه !

فقال : اسكتي ويحك ! فقد أراحه الله من شر كثير ، وفقد الناس بموته خيراً كثيراً ، يرحم الله حسناً .

وهكذا اتفق أعداؤه وأحباؤه على المأساة بفقده ، وكانت وفاته لليلتين بقيتا من صفر ، سنه خمسين للهجرة على المشهور .

فسلام عليه يوم ولد ، ويوم اختاره الله إليه ، ويوم يبعث حياً » .

بين يدي الدراسة

« .. وقد ابتلي المسلمون في عهودهم الأولى بشرذمة من الوضاعين والقصاصين الذين كان دأبهم الوحيد خلق أحداث لم تكن ، أو افتعال نصوص كاذبة .. »

— ١ —

دراسة التاريخ عملية صعبة يحتاج الباحث فيها إلى جهد كبير نظراً للتعقيد المربك الذي ينشأ من تضارب النصوص وتشابكها عند عملية سرد الوقائع والأحداث .

وربما يكون للأتجاه السياسي أو المذهبي الذي يتبناه كل مؤرخ أثر كبير في تحديد معالم الصورة للحدث الذي يريد تسجيله .

ومن هنا نشأ الاختلاف الشديد بين المؤرخين والباحثين في الحكم على الأحداث والوقائع واستخلاص النتائج بما يكون موافقاً للأتجاه الذي يؤمن به مذهبياً كان أو سياسياً .

وقد ابتلي المسلمون في عهودهم الأولى بشرذمة من الوضاعين والقصاصين الذين كان دأبهم الوحيد خلق أحداث لم تكن أو

افتعال نصوص كاذبة أو تشويه الصورة الصحيحة للحدث أو النص وإضافة شيء إليه يضمن حس الإثارة في نفوس السامعين والقارئين أو بما يتفق مع ميولهم وأهوائهم .

ويمكن أن نصنف هؤلاء إلى فئتين :

١ ـ وهم الذين طمحوا للشهرة وافتقدوا الدور الذي يوصلهم إليها فحاولوا أن يُلفتوا أنظار الناس إليهم بما يضعونه لهم من أحداث ووقائع لفقها لهم خيالهم الخصب ، أو ينقلوا لهم منها ما يتفق مع رغباتهم وميولهم ،وكتب الرجال تزخر بكثير من هؤلاء ..

٢ ـ وهم الذين تزلفوا الخلفاءوالولاةوطمعوا بعطائهم ورُتبهم فلفقوا ما طاب لهؤلاء من الأحداث والأقوال المفتراة .

وقد وجدت هذهالفئة مجالها الواسع بعد مقتل عثمان ونشوب الفتنة حين أعلن معاوية عصيانه وخروجه على طاعة الخليفة المنتخب الذي بايعه المسلمون أجمع وفي جميع الأمصار .

وكانت المعركة الطاحنة بين الحق والباطل الذي ذهب ضحيتها الآلاف من المسلمين .

ويبدأ معاوية يبذل الأموال الطائلة .. للوضاعين والقصاصين لأختلاق أحداث باطلة وتشويه حقائق ثابتة وافتعال نصوص كاذبة إيقاعاً منه بالطرف الآخر .. وقد سجل التاريخ الكثير

الكثير من ذلك وبلا تحفظ .

وبعدها راجت بضاعة الوضع حتى ملء التاريخ الإسلامي بأحداث ليس لها وجود إلا في خيال ناقليها من الوضاعين كسيف بن عمر وأمثاله الذين تفردوا بنقل أحداث لم يسبقهم إليها أحد ولم تخطر على خيال أحد ممن كان قبلهم .

ويأتي بعد هذا دور الباحثين الذين يحاولون كتابة التاريخ الإسلامي من جديد ويمكن تصنيف هؤلاء إلى فئتين :

١ ـ وهم الذين يحاولون في دراستهم تطبيق الوقائع على ما يلتزمونه من الخط السياسي أو المذهبي . وقد نراهم يتمسكون بالرواية المتروكة أو المصرح بجهالتها لأنها تتفق مع الاتجاه الذي يلتزمونه . ويبنون على أساسها النتائج التي يريدون استخلاصها لتأكيد سلامة مسلكهم السياسي أو المذهبي.

٢ ـ وهم الذين بنوا دراساتهم على الموضوعية والتجرد وبدون تحيز بل كانت نظرتهم للأحداث نظرة واقعية سليمة غير مرتبطة بأي اتجاه أو مسلك سياسياً كان أو مذهبياً، وهؤلاء هم القلة من الباحثين .

- ٢ -

والمؤرخ بعد هذا إذا أراد دراسة التاريخ بتجرد وبلا تحرف لا بد له من اختيار المصادر التي لا بد له من اعتمادها في دراسته

لكي لا تنحرف به النتائج عن منطق التجرد فيقع في أخطاء ربما يكون فيها تجن كبير على الواقع وخيانة للتاريخ .

وعامل اختيار المصادر عامل مهم في دراسة التاريخ فمثلاً إذا أردنا أن نبحث عن تاريخ فئة من المسلمين تلتزم مسلكاً سياسياً أو مذهبياً معيناً، فليس من التجرد أن نبحث عنها في مصادر يفترض أنها تلتزم مسلكاً معاكساً لها ، بل لا بد من الرجوع إلى مصادرها هي بالذات أو إلى مصادر يفترض فيها التجرد إن لم يكن لها مصادر معينة تؤرخ لها .. وإلا فإن الرجوع إلى المصادر ذات المسلك المعاكس قد يؤدي بالباحث إلى الحكم على تلك الفئة بما هو بعيد عن واقعها التي تلتزم به وهذه هي الخيانة بعينها .

ومن هنا نرى أن كثيراً من الباحثين قد وقعوا في أخطاء كبيرة في دراساتهم للتاريخ الإسلامي وربما كانت متعمدة فقد أرخ أحمد أمين في موسوعته للشيعة مثلاً من خلال ما أرخ لهم خصومهم من المذاهب الأخرى مع وفرة مصادرهم التي تؤرخ لهم واتساعها .. وتداولها في البلاد . وكان من جراء ذلك أن نسب للشيعة ما ليس بهم وتخبّط بالنتائج بما لا يليق بباحث إسلامي مثله .

ومن الطريف جداً إنني في ساعة كتابتي لهذه الدراسة قرأت في جريدة أخبار اليوم المصرية العدد المؤرخ ٢١-١٠-١٩٧٢ في

مقال (شرخ في خلافة المسلمين) للكاتب المصري سامي محمود.. هذه الفقرات أحببت أن يطلع عليها القــارىء ليتعرف على نموذج طريف من الباحثين المسلمين .

يقول الكاتب في معرض حديثه عن تحديد نظرة الشيعة للخلافة :

« .. والشيعة ترى ان الخلافة ينبغي ان تكون من بيت النبي ﷺ وأن علياً واحفاده أحق بها..»

هذا الذي ذكره الكاتب عن عقيدة الشيعة في الخلافة وأنها في علي واحفاده صحيح لا غبار عليه ولهم على ذلك من الأدلة ما يدعم هذا الاعتقاد ثم يقول بعد هذا :

« .. وتطرف بعضهم وقال ان أئمتهم معصومون وقد حلت فيهم صفات الله سبحانه وتعالى .. »

أما ما ذكره من قول الشيعة بعصمتهم فهو صحيح أيضاً .. ولا سبيل لانكاره ولهم من الأدلة الصريحة ما يدعمهم أيضاً .. ولكن قوله بأن الشيعة تعتقد بأن صفات الله سبحانه قد حلت بهم فهو قول هراء لا نعرف من أين استقى الكاتب هذه النسبة للشيعة ، فإن الشيعة تعتقد بأن هناك من صفات الخالق ما لا يتصف به غيره نبياً كان أو إماماً أو غيرهما كالخلق وعلم الغيب وغيرهما من الصفات المختصة به.. وهناك ما يتصف به هو وغيره

نبياً كان أو إماماً أو غيرهما كالكرم والرحمة مثلاً وغيرهما . ثم يقول الكاتب :

« ونسبوا للرسول أحاديث تقول أن الخلافة لعلي . . »

ونقول له إن هذه الأحاديث ليس مما نسبها الشيعة للرسول ﷺ بل روتها بالطرق المعتبرة كتب الحديث من السنة والشيعة . ثم يقول الكاتب . . ونترك الرد بعد هذا للقارىء :

« . . وهم — أي الشيعة — خمس فرق كيسانية وزيدية وإمامية وغلاة واسماعيلية » وهي تقول — أي هذه الفرق — ان عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل علياً إنما المقتول (جنى) . . ! يرى في صورة علي وأنه صعد للسماء وسيحيى عمر وأبو بكر وينتقم منهما . . ويزعمون ان الرعد والبرق صوته لذلك فإنهم إذا سمعوا الرعد يقولون السلام يا أمير المؤمنين ويقولون أيضاً ان محمد الباقر لم يمت ولا يموت ولكنه غائب إلى غير ذلك . . . »

هذا ما ذكره الكاتب بالنسبة لعقيدة الشيعة في الخلافة ولا أدري على أي مصدر اعتمد كاتبنا البحاثة المحقق . ! فيما ذكر ومن أي كتاب أخذ هذه الخاريق والنسب الباطلة ، أفهكذا تكون دراسة التاريخ . ! ولعل عذر الكاتب جهله .

هذا نموذج طريف من الدراسات الإسلامية في عصرنا الحديث

الذي اتسع فيه النشر وابتذلت فيه المصادر بنحو يسهل تناولها على كل احد : ولعلها العصبية أو الجهل أو الارتجال في كتابة التاريخ .. وكلها عيوب يجب ان يتجرد منها الباحث عندما يريد إعداد دراسة سليمة النتائج وبعيدة عن الهوس والتخبط .

- ٣ -

ثم ان في دراستنا لتاريخ فترة معينة او حدث معين لا بد من اعتماد أمور ثلاث وأخذها بنظر الاعتبار :

١ — دراسة الوضع الاجتماعي العام للفترة المعينة والواقع الذي كان مسرحاً لذلك الحدث موضوع الدراسة .

٢ — ملاحظة النصوص التاريخية كاملا وبدقة ومحاكمتها ونظم الاحداث التي تحكي عنها بتسلسلها الطبيعي وعدم تجزئة النص الواحد وإيراده كاملا وبناء الحكم عليه .

٣ — الابتعاد عن الحزازات المذهبية والميول السياسية واعتماد المصادر الموثوقة وطرح كل ما من شأنه ان يضلل النتائج المطلوبة عن خطها السليم .

وبذلك نضمن لدراستنا النتائج السليمة التي نتوخى الحصول عليها بتجرد وواقعية إذ دراسة الوضع الاجتماعي العام تلقي لنا الضوء الكاشف عن نوعية الاتجاهات التي يتألف منها الواقع

الاجتماعي واثر كل منها في الأحداث ونزعته الخاصة التي تنطلق منها نظرته الشاملة للواقع السياسي والعملي آنذاك . وباعتماد النصوص التاريخية الموثوقة وقياسها مع الوضع الاجتماعي العام يمكن استخلاص نتائج ربما تكون أقرب إلى الواقع من غيرها .

وعلى هذا الأساس سننطلق في دراستنا هذه التي سنحاول فيها أن نؤرخ (لصلح الحسن عليه السلام مع معاوية) وهو الحدث الذي كان خاتمة المطاف لعهد كان التوتر فيه قد بلغ أشده بين اتجاهين كان للتصادم بينها أثر كبير في الانحراف الخطير الذي مُنيَ به الحكم الإسلامي عن خطه الصحيح .

أحدهما : الاتجاه الاسلامي الصحيح ورائده الإمام علي عليه السلام ومركزه الكوفة .

ثانيهما : الاتجاه الأموي الذي يعتمد القوة والدهاء والمراوغة اسلوباً للحكم وعلى رأسه معاوية بن أبي سفيان ومركزه الشام .

وسنرى من خلال حديثنا عن أسباب الصلح ونتائجه ما يكشف لنا بوضوح وصراحة عن بعض الأبعاد النفسية الخطرة لملك الشام .

- ٤ -

وحديث صلح الإمام الحسن (ع) مع معاوية ـ موضوع دراستنا ـ

حديث تضاربت فيه آراء الباحثين وتشعبت فيه أنظارهم .

فهناك من حمّل الإمام تبعة الصلح واتهمه بعدم أهليته للقيام بأعباء الخلافة وعدم قدرته على تحمل مسؤوليات الحكم فكان الصلح المنفذ الوحيد له للتخلص من ورطة الخلافة معتمداً في ذلك على بعض النصوص التي افترض دلالتها على ذلك .

وهناك من حكم بصحة موقف الإمام وان الإمام أكره على الصلح ولم يكن مختاراً فيه لو انتفت أسبابه معتمداً في ذلك على بعض النصوص التاريخية التي تؤكد هذا المضمون .

ونحن لسنا في معرض ذكر ما اعتمد عليه كل من الطرفين والرد عليه أو اختياره.ولكننا سوف نعرض للحادثة ونسلسل الأحداث التي أدت إلى الصلح لنخلص إلى النتائج السليمة التي نحاول التوصل إليها .

الامام علي ومجتمع الكوفة

اللهم إني قد مللتهم وملوني وسئمتهم
وسئموني فابدلني بهم خيراً منهم
وابدلهم بي شراً مني .

- ١ -

انتهت قضية الحكمين .. بعد ان فرضتها ظروف حرجـــة وبدأت تلوح في الأفق بوادر أكثر حراجة من التحكيم . فقــد انقسم جيش الكوفة في صفين ودب الخلاف بين صفوفه وفئاته . فمن داع للحرب يطلب مواصلة القتـــال مع معاوية استمراراً للتصميم السابق على الحرب ومن داع للحرب . ولكنه يطلب من الإمام أن يعلن توبته على رؤوس الأشهاد بعد ان حكـّم الرجال في دين الله .. وهو كفر على زعمهم لا بد فيه من التوبة وكان هؤلاء هم الذين أجبروا الإمـــام على قبول التحكيم حين رفعت المصاحف من قِبـل جيش الشام . ومن داع للسلم والرجوع إلى الكوفة .

وهكذا أفلت الزمام من يد الإمام وبدأت رياح الفتن تهب على الكوفة وتجمّع الخوارج في النهروان وهم قسم كبير ممن كان يتألف منهم جيش الإمام في صفين..وخرج إليهم الإمام ولكنه

لما يشأ المبادرة لقتالهم بل حاول اقناعهم في العدول عن موقفهم هذا .. والرجوع إلى قتال معاوية ولم يستجب لنداء الإمام منهم إلا عدد قليل .. وقيل قسم كبير منهم .

ومن بقي منهم كانوا يزدادون عناداً وتصلباً في موقفهم كلما دعاهم الإمام إلى الدخول في الطاعة والسير الى قتال معاوية .

ودارت رحى الحرب وانكشفت عن مقتل الخوارج بأجمعهم ما عدا تسعة أو عشرة كما يذكر المؤرخون ، أحدهم عبد الرحمن بن ملجم الذي قتل الإمام فيما بعد .

ورجع الإمام إلى الكوفة .. وقلبـــه يقطر دماً ويذوب مرارة وأسى فهؤلاء الذين قتلهم فيالنهروان كانوا بالأمسأصحابه المخلصين له المستميتين في سبيله ولكن شبهة باطـلة عرضت لهم استغلها بعض المنافقين والحاقدين فأخـــذ يؤكدها في نفوسهم لتكون بداية المحنة في جيش الإمام .

- ٢ -

ورجع الإمام إلى الكوفة بعد أن انتهى من قتـال الخوارج وكان هدفـه الأول والأخير هو العود لقتـــال معاوية وضرب قاعدته الشام وفي هـذه الأثناء أخذت الغارات من قبل معاوية تفتح الثغرات فيمناطق نفوذ حكم الإمام وتزيد فيضراوة المحنة .
فقد وزع معاوية بعض فرق جيشه في بعض مناطق حـــكم

الإمام معتمداً حرب العصابات لكي يشغل الإمام بردهـــا عن التهيؤ لبدء حملة جديدة على الشام . حيث يضطر الإمام أن يوزع جيشه في الأطراف للاشتباك معها وإبعادها، وكانت خطة مريرة اضطرب بها حبل الأمن في مناطق حكم الإمام .

« فوجَّه النعمان بن بشير في ألف رجـــل [١] إلى عين التمر وفيها مالك بن كعب مسلحة لعلي في ألف رجل وكان مالك قد أذن لأصحابه فأتوا الكوفة ولم يبق معه إلا مائة رجل فلما سمع النعمان بذلـــك كتب إلى أمير المؤمنين يخبره ويستمده فخطب عليٌّ الناس وأمرهم بالخروج فتثاقلوا .. ولولا استنجاد مالـــك بمخنف بن سليم وإنجاده له بولده عبد الرحمن مع خمسين مقاتـلاً لكانت الدائرة قد دارت على مالك ولكن مجيء عبد الرحمن مع المقاتلة كان السبب في انهزام أهل الشام .. » [٢] .

وقد خطب الإمام أهل الكوفة بعد ما رأى من تثـــاقلهم وتخاذلهم عن تلبية نداءه لانجاد مالك بن كعب فقال :

« يا أهل الكوفة كلما سمعتم بجمع من أهـــل الشام أظلكم إنجحر كل امرىءٍ منكم في بيتـــه واغلق عليه بابه انجحار الضب في جحره والضبـــع في

(١) في الطبري والبداية والنهاية « ألفي رجل » كذا ذكر في حاشيـــة الكامل لابن الأثير .
(٢) ابن الأثير ـ الكامل ج ٣ ص ١٨٨ .

وجارها المغرور من غررتموه ومن فاز منكم فاز بالسهم الأخيب لا أحرار عند النداء ولا إخوان عند النجاء إنا لله وإنا إليه راجعون . ماذا منيت به منكم عُميٌ لا يبصرون وبُكم لا ينطقون . وصُم لا يَسمعون إنا لله وإنا إليه راجعون .. »[1] .

ثم وجه معاوية أيضاً سفيان بن عوف في ستة آلاف رجل وامره ان يأتي هيت فيقطعها ثم يأتي الأنبار والمدائن فيوقع بأهلها[2] .

ووجه أيضاً .. عبدالله بن مسعدة الفزاري في ألف وسبعماية رجل إلى تيماء وفي مسيره بلغ مكة والمدينة[3] .

ووجه أيضاً .. الضحاك بن قيس وأمره ان يمر باسفل واقصة ويغير على كل من مر به ممن هو في طاعة علي من الاعراب وارسل ثلاثة آلاف رجل معه ..[4]

وهكذا .. كانت السرايا تترى على أطراف مناطق حكم الإمام وكان الإمام يلاقي الجهد الكبير في إثارة النفوس واستنهاضها

---

(١) ابن الأثير ـ الكامل ج ٣ ص ١٨٨ .
(٢) ابن الأثير ـ الكامل ج ٣ ص ١٨٩ .
(٣) نفس المصدر .
(٤) نفس المصدر .

لصد العدوان وكأن نفوس أهل الكوفة تواقة إلى الدعة والاستكانة بعد ما استنفذت حرب صفين منهم . ولكنه بطبيعة الموقف الحرج لا يعدو عن كونه خذلاناً للحكم القائم فيها واعطاء الفرصة الكافية لمعاوية لكي يحقق أطماعه باضعاف شوكة حكم الإمام والذي يدلنا على ذلك بوضوح ان معاوية حاول بنفسه القيام بغارة على بعض الأطراف فقد سار بنفسه حتى شارف دجلة مع فرقة من جيشه ولكنه نكص راجعاً .. [1] ولا نعرف سبب رجوعه . ولكنها دلالة واضحة على تفكك الوضع العام في الكوفة الناشيء من الخذلان الصريح من أهلها كما تدل عليه بعض خطب الإمام وقد مرت عليك خطبته حين طلب منهم نجدة مالك بن كعب ..

ولم يكتف معاوية بالاغارة على أطراف الكوفة والبصرة والمدائن بل أرسل السرايا إلى مكة بقيادة يزيد بن شجرة الرهاوي في ثلاثة آلاف من أهل الشام وكان على مكة قثم بن العباس والياً من قبل الإمام [2] .

وأرسل أيضاً بسر بن أبي أرطاة في ثلاثة آلاف إلى المدينة ثم إلى مكة ثم إلى اليمن فعاث في الأرض فساداً وقتل ولدي

---

(١) ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ١٨٩ .

(٢) نفس المصدر ص ١٩٠ .

عبيد الله بن العباس بعد أن هرب من اليمن وكان عاملاً للإمام عليها .

وأرسل عبد الرحمن بن قباث بن أشيم إلى بلاد الجزيرة وأرسل زياد بن مكحول العامري إلى السماوة ومسلم بن عقبة المري إلى دومة الجندل [1] .

وهكذا كان الخذلان من أهل الكوفة الأساس في هذه الغارات التي زلزلت كيان حكم الإمام وشغلته عن هدفه الأكبر وهو ضرب الشام قاعدة الفساد ومصدر الفتن وبلغت المحنة ذروتها حين قتل الإمام بسيف الشقي ابن ملجم .

- ٣ -

ولا بد لنا هنا من ذكر بعض كلمات الإمام عليه السلام في ذم أهل الكوفة على تخاذلهم وانكفائهم عن نصرته وتصاممهم عن سماع نداءاته المتوالية للحرب لصد العدوان وحماية البلاد والعباد من ظلم المغير وطغيانه قال عليه السلام :

« .. كم أداريكم كما تدارى البكار العَمِدة والثياب المتداعية كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر كلما أطل عليكم منسر من مناسر أهل الشام أغلق

(١) ابن الاثير الكامل ج ٣ ص ١٩١ – ١٩٢ .

كل رجل منكم بابه وانجحر انجحار الضبة في جحرها والضبع في وجارها الذليل والله من نصرتموه ومن رمى بكم فقد رُمي بافوق ناصل انكم والله لكثير في الباحات قليل تحت الرايات وإني لعالم بما يصلحكم ويقيم أودَكم ولكني والله لا أرى إصلاحكم بافساد نفسي .

« أضرع الله خدودكم، واتعس جدودكم، لا تعرفون الحق كمعرفتكم الباطل، ولاتبطلون الباطل كإبطالكم الحق .. »[1]

والإمام بكلامه هذا يصف الحالة النفسية لمجتمع الكوفة أبان الغارات الشامية على مناطق نفوذ حكمه فهم أميل إلى الدعة والراحة والبطالة حيث تمتلىء بهم الساحات العامة ويقل عددهم تحت الرايات ولكنه يعلم بالذي يصلحهم وهو أخذه لهم بالشدة والقتل على الظنة والتهمة ولكن ذلك ليس من سيرة الإمام في حكمه ولا تأمر به الشريعة الحقة فهو لا يريد صلاحهم بإفساد نفسه .

وهنا تلتهب سَورة الألم في أعماق الإمام وتهزه مرارة المحنة أمام هذا الموقف المتخاذل من أصحابه فيدعو عليهم بأن يذلهم

---

(١) شرح النهج لابن الحديد ج ٦ ص ١٠٢ .

لله سبحانه ويسلط عليهم من يعرف كيف يكبح من جماحهم ويصعّر من خدودهم :

ويقول عليه السلام في موقف آخر :

« .. أحمد الله على ما قضى من أمر ، وقدّر من فعل ، وعلى ابتلائي بكم ، أيتها الفرقة التي إذا أمرتُ لم تطع ، وإذا دعوتُ لم تُجب ..

« إن أُمهلتم خضتم ، وإن حوربتم خرتم ، وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم ، وإن أجئتم إلى مشاقة نكصتم .

« .. لا أبا لغيركم ، ما تنتظرون بنصركم ، والجهاد على حقكم » .

« .. الموت أو الذل لكم ، فوالله لئن جاء يومي — وليأتيني — ليُفرقنَ بيني وبينكم ، وأنا لصحبتكم قالٍ ، وبكم غير كثير .

« لله أنتم : أما دين يجمعكم ، ولا حمية تشحذكم ، أو ليس عجباً .. أن معاوية يدعو الجفاة الطغام ، فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء ، وأنا أدعوكم ، وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس ، إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتتفرقون عني ، وتختلفون عليّ ..

. .. انه لا يخرج إليكم من أمري رضاً ترضونه ، ولا سخط فتجتمعون عليه ، وإن أحبّ ما أنا لاقٍ إليّ الموت ..»

« .. قد دارستكم الكتاب ، وفاتحتكم الحجاج ، وعرّفتكم ما أنكرتم ، وسوّغتكم ما مججتم ، لو كان الأعمى يلحظ أو النائم يستيقظ ..

« وأقرب بقوم من الجهل بالله ، قائدهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة .. »[1] .

وفي هذه الفقرات يصوّر لنا الإمام واقع الكوفة المنهار وابتلائه بها فهي مجتمع عجيب من حيث التكوين العام لا يخضع لقاعدة أو أساس. فالتمرد على الحكم طبيعة متأصلة فيه والتجاوز على النظام لا يعني عنده شيء والحاكم عنده لا يُمثل فيما يرى إلا نفسه فلكل فرد من أفراده حق الأعتراض والنقض بل وحق التفرد في الرأي .. فيما يعرض من القضايا العامة فلا رضاً للحاكم يرضونه ولا سخط يجتمعون عليه ..

وهذا بخلاف مجتمع الشام فهو مجتمع متماسك على باطله منقاد لحاكمه ليس عن امره معدى ولا على نهيه تجاوز مع أن قائده معاوية ومؤدبه ابن النابغة عمرو بن العاص .

---

(١) شرح النهج لابن أبي الحديد ج ١٠ ص ٦٧ .

وقال عليه السلام في موضع آخر لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة .

« .. أيها الناس، انه لم يزل أمري معكم على ما أحب حتى نهكتكم الحرب، وقد والله أخذت منكم وتركت وهي لعدوكم أنهك .

« لقد كنت بالأمس أميراً فأصبحت اليوم مأموراً وكنت أمس ناهياً فأصبحت اليوم منهياً، وقد أحببتم البقاء وليس لي ان أحملكم على ما تكرهون .. » [1]

وقال عليه السلام في موضع آخر وقد تواترت عليه الأخبار باستيلاء أصحاب معاوية على البلاد، وقدم عليه عاملاه على اليمن وهما عبيد الله بن العباس وسعيد بن نمران لما غلب عليها بسر بن ابي ارطاة فقام عليه السلام على المنبر ضجراً بتثاقل أصحابه عن الجهاد ومخالفتهم له في الرأي فقال :

« .. ما هي إلا الكوفة أقبضها وأبسطها ان لم تكوني إلا انت تهب اعاصيرك فقبحك الله وتمثل بقول الشاعر :

لعمرو أبيك الخير يا عمرو انني

على وضر من ذا الإناء قليل

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ج ١١ ص ٢٩ .

« ثم قال عليه السلام :

« أنبئت بسراً ، قد اطّلعَ من اليمن واني والله لأظن ان هؤلاء القوم سيدالون منكم باجتماعهم على باطلهم وتفرقكم عن حقكم وبمعصيتكم إمامكم في الحق وطاعتهم إمامهم في الباطل وبأدائهم الأمانة إلى صاحبهم وخيانتكم وبصلاحهم في بلادهم وفسادكم فلو ائتمنت أحدكم على قعب لخشيت أن يذهب بعلاقته ..

« اللهم اني قد مللتهم وملّوني وسئمتهم وسئموني فأبدلني بهم خيراً منهم وأبدلهم بي شراً مني اللهم مُث قلوبهم كما يماث الملح في الماء أما والله لوددت ان لي بكم ألف فارس من بني فراس بن غنم :

هنالك لو دعوت أتاك منهم فوارس مثل أرمية الحميم [1]

وقال عليه السلام في موطن آخر عند استنفار الناس إلى أهل الشام وهي خطبة طويلة نستل منها بعض الكلمات المعبّرة قال:

« اف لكم لقد سئمت عتابكم ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة عوضاً وبالذل من العز خلفاً إذا

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ج ١ ص ٣٣٢ .

دعوتكم إلى جهاد عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة ومن الذهول في سكرة ما أنتم لي بثقة سجيس الليالي وما أنتم بركن يمال بكم .

« ما أنتم إلا كإبل ضل رعاتها فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر .

« وأيمُ الله اني لأظن بكم أن لو حمس الوغى واستحر الموت قد انفرجتم عن ابن أبي طالب انفراج الرأس [1] » .

وهذه الكلمات على ما يظهر صدرت منه عليه السلام في خطبة خطبها بعد وقعة النهروان يستنهض بها أصحابه من أهل الكوفة على حرب الشام وقد ذكر ابن أبي الحديد في شرحه لهذه الخطبة :

« .. انه لما كره القوم المسير إلى الشام عقيب واقعة النهروان أقبل بهم أمير المؤمنين عليه السلام فأنزلهم النخيلة وأمر الناس أن يلتزموا معسكرهم ويوطنوا على الجهاد أنفسهم وأن يقلوا زيارة النساء وأبنائهم حتى يسير بهم إلى عدوهم وكان ذلك هو الرأي لو فعلوه لكنهم لم يفعلوا وأقبلوا يتسللون ويدخلون الكوفة فتركوه عليه السلام وما معه من الناس إلا رجال من وجوههم قليل وبقي المعسكر خالياً فلا من دخل الكوفة خرج إليه ولا من أقام

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ج ٢ ص ١٨٩ .

معه صبر فلما رأى ذلك دخل الكوفة »[1].

ونكتفي بهذا المقدار من كلمات الإمام عليه السلام ولعلنا أطلنا في النقل ولكن سلامة البحث ألجأتنا لذلك ولعلنا من خلال هذه الكلمات التي تعبّر عن مدى تأثر الإمام عليه السلام من الوضع المتقلب المتخاذل الذي كان يسيطر على مجتمع الكوفة يمكننا أن نستجلي بعض الظواهر العامة التي كان لها بعض التأثير على موقف الإمام الحسن عليه السلام من الحرب مع معاوية والتجائه إلى الصلح :

١ - ان روح الاستبداد في الرأي والاستقلال في اختيار الموقف كان الطابع الجلي الذي تتسم به بعض عناصر الجيش المهمة في الكوفة وليس للإمام أن يتخذ الموقف الذي يراه مناسباً باعتباره القائد الأعلى ويستقل به بل ربما عليه في بعض الأحوال أن يخضع للرأي المعاكس له وإلا انقلب الموقف وانفصمت عرى الوحدة بين صفوف الجيش ويتجلى لنا ذلك واضحاً في موقف التحكيم الذي انهارت فيه وحدة الموقف واضطر الإمام إلى اختيار الموقف المضاد مرغماً .. وكذلك الأمر بالنسبة إلى ما بعد واقعة النهروان حيث دعاهم الإمام إلى التزام المعسكر ليسير بهم إلى عدوهم في الشام وردهم عليه بما كان عاقبته تفرق الجيش وانتصار الرأي المعاكس .

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ج ٢ ص١٩٣ - مروج الذهب للمسعودي ج ٢ ص ٤١٨ .

٢ ـ والذي يظهر لنا من بعض كلمات الإمام السابقة أن مللاً متبادلاً قد حصل بين الإمام وأهل الكوفة فقد ملّ أهل الكوفة حكم الإمام لأن فترة حكمه كانت فترة حروب وفتن استنفذت الكثير من طاقاتهم البشرية والمادية فمن حرب الجمل إلى صفين إلى النهروان إلى غيرها من الحروب الصغيرة التي كانت للرد على سرايا معاوية المغيرة على الأطراف .. وقد ملّ الإمام أهل الكوفة لأنهم لا يستجيبون لما يطلبه منه في سبيل حسم الموقف بينه وبين معاوية ملك الشام .

٣ ـ والذي يظهر لنا أيضاً ان هناك طائفة من الرؤساء والقواد ممن لم يجدوا في حكم الإمام ما يحقق لهم أطماعهم وأمانيّهم في الحياة حاولوا إثارة الموقف ضد الإمام وتخذيل الناس عن نصرته .باستغلال ما خلفته الحروب في نفوس العامة من الاجهاد البدني والمادي .

٤ ـ يضاف إلى ذلك وجود بعض من يميل لحكومة الشام لا لأنه يجد فيها ما يشبع نهم أطماعه ورغباته بل لأن في نفسه حقداً يحتمل على الإمام ومنهم من لم يسلم من طعن الإمام وتوبيخه .. وهؤلاء ومَن قبلهم سنرى أنهم كيف كاتبوا معاوية باذلين له الطاعة وتسليم الحسن أسيراً لو شاء .. حين رأوا إن في حكم الحسن امتداداً لحكم أبيه .

٥ ـ يضاف إلى ذلك وجود طائفة الخوارج التي كان لها

الدور الكبير في بلبلة الوضع العام وإثارة الفوضى بين صفوف الجيش الكوفي .

ولكن هذا كله لا يعني إنعدام الفئة المخلصة للحكم والمتفانية في سبيله ولكنها لا تصمد أما الكثرة التي تمتلك زمام الأحداث وبها يتماسك موقف الحكم .

ولا ننس الموقف الذي وقفته في الفترة التي سبقت التحكيم وكادت ان تلتحم في معركة ضارية مع الفئة المعاكسة المطالبة بقبول التحكيم لولا تدخل الإمام نفسه لحسم النزاع آخذاً في اعتباره خطورة الموقف لو التحم الجيش ببعضه إذاً لكان لمعاوية أن يحسم الموقف لصالحه بالقضاء على الإمام وجيشه .

وفي مقابل هذا كله نرى أن جيش الشام أطوع لمعاوية من نفسه وليس فيه من تحدثه نفسه بمخالفته فيما يريد .

ولعل الذي لاقاه جيش الشام من الخسائر في صفين في العدة والعدد أكثر بكثير مما لاقاه الجيش الكوفي .. ومع ذلك نرى نشاط الجيش الشامي في غاراته على مناطق نفوذ حكم الإمام قوياً وكأنه لم يُصب بالخسائر التي مُنيّ بها في صفين وفي مقابل ذلك نرى تقاعس الكوفة عن تلبية نداء الجهاد وتخاذلهم أمام استنجاد الإمام بهم .

ومن كل هذا يتضح لنا جلياً تدهور الحالة النفسية وانهيار

الروح المعنوية في أوساط الجيش الكوفي فهم للسلم أقرب منهم للحرب وهم للدعة والاستكانة أميل منهم للحركة والنشاط وهم في أنفسهم يحاولون التماس الأعذار لموقفهم المتخاذل والتمسك بأدنى شبهة ..

ولتكن هذه الصورة ماثلة أمامنا حينما نريد أن نقيّم الأسباب التي دعت الإمام الحسن للقبول بالصلح مع معاوية ..

— ٤ —

وفيما كان الإمام عليه السلام يحاول إعادة بناء جيشه بالترغيب تارة وبالترهيب أخرى إذ عاجله الشقي عبد الرحمن بن ملجم المرادي الخارجي بضربته القاتلة في التاسع عشر من شهر رمضان المبارك سنة أربعين من الهجرة وتوفى متأثراً بجرحه في ليلة الواحد والعشرين منه وبذلك انتهت حياة الإمام العظيم المثقلة بأعباء المحن والبلايا .

وكان عيد في الشام اهتزت له أعطاف معاوية وباركته الطغام من اتباعه وانتعشت آمال الطاغية بالاستيلاء على الكوفة وما يتبعها فدس العيون والجواسيس لترصد له الوضع العام هناك وتفسد الأمر باشاعة الفوضى والفساد ..

وبويع الإمام الحسن بالخلافة .. وتحرك معاوية بجيشه نحو العراق .

* * *

ومن هنا تبدأ حلقات المأساة تترابط في سلك الأحـــداث لتحدد المصير الذي انتهى فيما بعد إلى إمضاء الصلح .

والسؤال الذي يعنينا الإجابة عليه في دراستنا هذه هو :

هل كان الحسن يرى الصلح مختاراً أم إنه أكره عليه ؟

ولا بد في الإجابة عليه من التدرج في سرد الأحداث وتفسير بعض الظواهر التي لها تأثير كبير في تقييم الموقف لتتضح أمامنا الرؤيا ، وينجـلي بعض الغموض الذي تسبب في تورط بعض الباحثين باتخاذهم موقفاً سلبياً من الإمام الحسن واتهامه بما هـــو براء منه .

البيعة

« معاشر الناس: هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه .. » .

بويع الحسن عليه السلام بالخلافة بعد قتل أبيه وأول من بايعه العبد الصالح قيس بن سعد بن عبادة وقال له : أبسط يدك أبايعك على كتاب الله وسنة نبيه وقتال المحلين فقال له الحسن عليه السلام .. على كتاب الله وسنة رسوله فانهما يأتيان على كل شرط .. فبايعه الناس وكان الحسن يشترط عليهم إنكم مطيعون تسالمون من سالمت وتحاربون من حاربت فارتابوا بذلك وقالوا ما هذا لكم بصاحب وما يريد هذا إلا القتال [1] » .

وهذا أول الريب في موقف الكوفة مع أن الإمام الحسن هنا لم يصرح با رادته القتال بل طلب منهم البيعة على أن يسالموا من سالم ويحاربوا من حارب هذا أول شرط يؤخذ في البيعة وهو أن لا يكون موقف الأمة معاكساً لموقف الإمام بل متماسكاً معه وتابعاً له بحسب ما يراه من المصلحة .

وقد لاحظ الإمام الحالة النفسية للكوفة قبل مقتل أبيه حين طلب من قيس أن يبايعه على كتاب الله وسنة رسوله فإنهما

---

(١) ابن الاثير الكامل ج ٣ ص ٢٠٢ وفي الطبري وما يريد هذا القتال بدون استثناء ولكننا نرجح صحة ما ذكره ابن الاثير لما سنراه من تقاعس أهل الكوفة وتخاذلهم عن الخروج للحرب حينما دعاهم الحسن لذلك وما لاقاه من المماتاة حتى تمكن من جمع عشرين ألفاً لقتال معاوية ومن هنا يعلم عدم صحة ما ذكره بعض المؤرخين من ان هناك أربعين ألفاً كانوا قد بايعوا أمير المؤمنين على الموت قبل قتله والافاين كانوا حينما دعاهم الحسن .

يأتيان على كل شرط ولم يقحم قتــال المحلين كشرط صريح في البيعة بل يبقى شرطاً ضمنياً يكفله شرط العمل بالكتاب والسنة.

وفي أعيان الشيعة بعد أن روى خطبة الحسن في تأبين أبيه عن الأبشيهي في كتاب المستطرف وأبو الفرج في المقاتل والحاكم في المستدرك بسند كل من فيه اشراف قال :

فقام عبد الله بن العباس [1] (ولعل الأصح عبيد الله) بين يديه فقال :

« .. معاشر: الناس هذا ابن نبيكم ووصي إمامكم فبايعوه » .

فاستجاب الناس فقالوا :

«ما أحبه إلينا وأوجب حقه علينا وأحقه بالخلافة»

وبادروا إلى البيعة له بالخلافة ..

ثم نقل في الأعيان عن أبي الفرج انه قال :

ثم نزل الحسن عن المنبر فرتب العمال وأمّر الأمراء ونظر في الأمور وأنفذ عبد الله بن العباس إلى البصرة .. قال :

---

(١) الظاهر عبيدالله بن العباس لأن عبد الله كان في ذلك الوقت في مكة ويؤيده ما ذكره بعض المؤرخين من ان الذي قام هو عبيد الله ، لا حظ صلح الحسن لآل ياسين .

وكان أول شيء أحدثه الحسن بن علي عليه السلام انه زاد المقاتلة مائة مائة وقد كان أبوه فعل ذلك يوم الجمل والحسن عليه السلام فعله على حال الاستخلاف فتبعه الخلفاء بعد ذلك [1] » .

وهذا النص التاريخي يكشف لنا بوضوح عن موقف الإمام الحسن الجاد من الحرب ومجابهة معاوية بالقوة وإلا فما معنى زيادة المقاتلة في العطاء؟ وما هو إلا لدفع النفوس وترغيبها للتأهب للقتال .

وقد أخذ الإمام جانب الحزم والصراحة في موقفه من معاوية فإنه لما بلغ معاوية قتل الإمام أمير المؤمنين عليه السلام وبيعة الناس ابنه الحسن عليه السلام دس رجلاً من حمير إلى الكوفة ورجلاً من بني القين إلى البصرة ليكتبا إليه بالأخبار ويفسدا على الحسن الأمور فعرف ذلك الحسن فأمر باستخراج الحميري من عند لحام بالكوفة فأخرج وأمر بضرب عنقه وكتب إلى البصرة باستخراج القيني من بني سليم فأخرج وضربت عنقه » [2] .

ثم كتب الإمام الحسن عليه السلام إلى معاوية :

« أما بعد : فإنك دسست إليّ الرجال كأنك تحب اللقاء لا أشك في ذلك فتوقعه إنشاء الله وبلغني

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ١٥ .
(٢) نفس المصدر ص ١٦ .

عنك انك شمّت بما لم يشمت به ذورا الحجى وإنما مثلك في ذلك كما قال الأول :

فانا ومن قد مات منا لكالذي
يروح فيمسي في المبيت ليغتدي

فقل للذين يبقى خلاف الذي مضى
تجهز لأخرى مثلها فكأن قد [1]

لقد كانت هذه الحادثة إنذاراً لمعاوية بالحرب وتهديداً له له وقطعاً لآماله بالإستيلاء على الكوفة بسلام .

وفي كتاب آخر يكتب الإمام لمعاوية جواباً له على رسالته التي يلمح فيها للصلح ويطلب فيها من الإمام أن يبايعه على أن يجعل له ولاية العهد وفي هذا الكتاب تظهر قوة موقف الإمام وعدم اعتنائه بمثل هذه العروض التي يحاول فيها معاوية استمالة جانب الإمام .. قال الإمام :

« .. أما بعد : فقد وصل إليّ كتابك فتركت جوابك خشية البغي عليك فاتبع الحق تعلم أني من أهله والسلام .. » [2]

ولكن معاوية أبعد من أن يتبع الحق أو يركن إليه بل هو يريد الوقيعة بالحق ومحو ذكره . .

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ١٦ .
(٢) » » » » ص ١٩ عن المدائني .

التعبئة للقتال

وهكذا أخذت عناصر المحنة تتفاعل في جو رهيب ينـذر بعمق المأساة التي ستنتهي بمسيرة الكوفة إلى الإنهيـار والدمار .

وبدأ معـــاوية يعبيء جيشه ويكتب لعماله بموافاته لغزو العراق وفي بعض كتبـــه لعماله يذكر معاوية ان بعض أشراف الكوفة وقادتهم كتبوا اليـــه يلتمسون منه الأمان لأنفسهم وعشائرهم [1] وان صح هذا فهو اول الخذلان وسنرى فيما بعـد ان معاوية أرسل للإمـــام بمجموع الرسائل التي وردته من أصحابه وقادة جيشه تطلب منه الأمان وتبذل له الطاعة والولاء ..

وبدأ الحسن يستنهض الكوفة للجهاد والمسير لقتـــال المحلين بعد ان بلغه توجه معاوية نحو العراق وانه بلغ جسر (منبج) فبعث حجر بن عدي يأمر العمال والنـــاس بالتهيؤ للمسير ونادى المنادي الصلاة جامعة فأقبل النـــاس يتوثبون ويجتمعون فقال الحسن عليه السلام — اي للمنادي — إذا رضيت جماعة الناس فاعلمني وجاء سعيد بن قيس الهمداني فقـــال اخرج فخرج الحسن فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« .. اما بعد : فإن الله كتب الجهـــاد على خلقه وسماه كرهاً ثم قال لأهل الجهاد من المؤمنين اصبروا ان الله مع الصابرين فلستم .. أيها الناس نائلين مـــا تحبون إلا بالصبر على ما تكرهون انه بلغني أن معاوية بلغه انا كنا ازمعنـــا المسير إليه فتحرك

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ١٩ عن المدائني ، شرح النهج ابن ابي الحديد ج ١٦ ص ٣٨ .

لذلك فأخرجوا رحمكم الله إلى معسكركم بالنخيلة ..
فسكتوا [1] »

وهكذا يقف أصحاب الحسن هـــذا الموقف المتخاذل من قائدهم وإمامهم فيسكتون حيث يطلب منه الإجابة على ندائه بالخروج إلى معسكرهم النخيلة وتحولُ أعينهم وتهلع قلوبهم فلما رأى ذلك عدي بن حاتم قام فقال :

« أنا ابن حاتم سبحان الله ما أقبح هذا المقـــام ألا تجيبون إمامكم وابن بنت نبيكم أين خطباء المصر الذين ألسنتهم كالمخاريق في الدعة فإذا جد الجـــد فروا غون كالثعالب أما تخافون مقت الله ولا عيبها وعارها ... ثم استقبل الحسن بوجهه فقال :

« أصاب الله بك المراشد وجنّبك المكاره ووفقك لما تحمد ورده وصدره قد سمعنا مقالتك وانتهينا إلى أمرك وسمعنا لك وأطعناك فيما قلت ومـــا رأيت وهذا وجهي إلى معسكري فمن أحب أن يرافيني فليواف .. »

ثم مضى لوجهه فخرج من المسجد ودابته بالبـــاب فركبها

---

(١) نفس المصدر ، ابن ابي الحديد ج ١٦ ص ٣٨ قال : وانه في كلامه يتخوف خذلان الناس له قال : فسكتوا فما تكلم منهم أحد ولا أجابـــه بحرف .

ومضى إلى النخيلة وكان عدي بن حاتم أول الناس عسكراً[1].

ولكن الناس لم يتحركوا ، فلا تزال العيون الحولاء تدور في أحداقها .. وانبرت الثلة الخيّرة والصفوة الأمينة المؤمنة لتقف الموقف اللائق أمام هذا الخذلان المخزى .. فقام قيس بن سعد بن عبادة الانصاري ومعقل بن قيس الرياحي وزياد بن صعصعة التيمي فأنبوا الناس ولاموهم وحرضوهم وكلموا الحسن بمثل كلام عدي بن حاتم في الاجابة والقبول فقال لهم الحسن عليه السلام :

« صدقتم رحمكم الله ما زلت أعرفكم بصدق النية والوفاء والقبول والمودة الصحيحة فجزاكم الله خيراً »

ثم نزل .. وخرج الناس فعسكروا ونشطوا للخروج وخرج الحسن إلى المعسكر واستخلف على الكوفة المغيرة بن الحارث بن عبد المطلب وامره باستحثاث الناس في إشخاصهم إليه فجعل يستحثهم ويخرجهم حتى يلتئم العسكر ..[2]

وهكذا بدأت المسيرة ولكن دون أن يكون دافع الحركة اختيارياً بل بتثاقل وإكراه تفرضه طبيعة الموقف المتخاذل، ولولا الصفوة الخيّرة والثلة المؤمنة أمثال قيس وعدي ومعقل وغيرهم لأنقلب ميزان الموقف وانتصرت عوامل الضعف عاجلاً ولكن موقف

---

(١) نفس المصدر ص ١٩ شرح النهج ابن ابي الحديد ج ١٦ ص ٣٨ وفيه اين خطباء مضر (اين المسلمون اين الخواضون من أهل المصر) .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠ ابن ابي الحديد ج ١٦ ص ٣٩ .

هؤلاء المتصلب المنطلق من إيمانهم الجاد بحكمة القائـــد ، ولزوم اتباعه واحقيته بالمركز ، كان من أقـوى الأسباب التي حفظت للجيش تماسكه وانقياده وبعث النشاط والحماس فيه .

وكان جيش الإمام يتكون من خليط غريب ، فقد تجمعت فيه عدة إتجاهات متعاكسة ، وعناصر متضادة، ويمكن بالنظرة الاولية تصنيفه إلى فئات :

١ ـ الخوارج: وهم الذي خرجوا عن طاعة الإمام علي عليه السلام وحاربوه وناوئوه ونصبوا له العداوة ، وقد وجـــدو في الإمام الحسن عليه السلام ، حلا وسطاً، فانضموا إليه لمحاربة معاوية وهؤلاء أناس تستثيرهم أدنى شبهة عارضة فيتعجلون الحكم عليها، وسنرى أنهم كيف وثبوا على الإمام الحسن فيما بعد .

٢ ـ الفئة الممالئة للحكم الأموي ، وهي على قسمين :

آ ـ وهم الذين لم يجدوا في حكومة الكوفة ما يشبع نهمهم ويروي من ظمأهم فيما يحلمون به من مطامع يطمحون إليها فأضمروا ولائهم للشام مترقبين سنوح الفرصة للوثوب على الحكم وتسليم الأمر لمعاوية .

ب ـ وهم الذين حقدوا على حكومة الكوفـــة لضغائن في نفوسهم أورثتها العهود السالفة ، أو حسابات شخصية .

وسنرى فيما بعد خيانة هؤلاء وكتابتهم لمعاوية تزلفاً وطمعاً

في الحظوة عنده، وترقباً لنيله وعطائه ..

٣ ـ الفئة المتأرجحة التي ليس لها مسلك معين أو وجهة خاصة مستقلة ، وإنما هدفها ضمان السلامة ، وبعض المطامع عند الجهة التي ينعقد لها النصر فهي تترقب عن كثب إلى أي جهة ، يميل ميزان القوة لتميل معه .

٤ ـ الفئة التي تثيرها بعض العصبيات القبلية ، أو الاقليمية

٥ ـ الغوغاء وهي الفئة التي لا تستند في موقفها إلى أساس بل هم اتباع كل ناعق يميلون مع كل ريح .

٦ ـ الفئة المؤمنة المخلصة ، وهي القلة الخيّرة الذي يذوب صوتها في زحام الأصوات الأخرى المماكسة لها .

من هذه الفئات المتماكسة مسلكياً ، ومن هـــذه العناصر المختلفة المنزع يتكون جيش الإمام الحسن، فهو خليط لا يربط بين فئاته هدف واحد معين، وهو معرض للأنقسام والتفكك لدى أي بادرة إنقسام ، لتفسد خطة رؤسائه وقادته .

وقد شعر الإمام الحسن بخطورة هذا الموقف ، وانقسام هذا التجمع الخليط على نفسه ذاتياً ، وقد ذكر ابن طاووس في كتابه الملاحم والفتن كلاماً يؤثر عنه عليه‌السلام يعبر عن ضعف ثقته بجيشه ، وكان من أبلغ ما أفضى به في هذا الصدد ، وذلك في خطابه الذي خاطب به جيشه في المدائن قال فيه :

« وكنتم في مسيركم إلى صفين ، ودينكم أمام دنياكم واصبحتم اليوم ودنياكم أمام دينكم ، وانتم بين قتيلين قتيل بصفين تبكون عليه ، وقتيل بالنهروان تطلبون منا بثأره ، وأما الباقي فخاذل ، وأما الباكي فثائر » .

وكان معاوية قد عرف نقاط الضعف التي ابتلي بها جيش الإمام الحسن ، فرسم للموقف خطة حاسمة تحسم الأمر بينه وبين الإمام ، وذلك بدعوته للصلح واعطائه الشروط التي يريد ، وإن لم يقبل بذلك ، فإن احبولته التي حاكها حول قادة الإمام ورؤساء جيشه كافية ، لأن تمنع الالتحام بين المعسكرين ، وتدفع بالإمام الحسن إلى التسليم بالأمر الواقع .

وهكذا أخذت عناصر المحنة تتفاعل في جو رهيب ينذر بعمق المأساة التي ستنتهي بمسيرة الكوفة إلى الانهيار والدمار .

في طريق الصلح

وينبلج الصبح ويفتقد العسكر قائده فترقص قلوب المنافقين والمسالمين وتدمى عيون المخلصين .

كان معسكر النخيلة يستقبل الوافدين إليه من الكوفة للانضمام إلى الجيش الذي تحركت طلائعه لملاقاة جيش الشام ، وكانت حناجر الخطباء الصافية قد بُحت وهي تستنهض العامة وتلهب بهم الحماس للالتحاق بالطلائع الزاحفة .

وخرج الإمام بعد أن كان قد بعث على مقدمته عبيد الله بن العباس في اثني عشر ألفاً ، وكانت الطلائع قد بلغت (مسكن) حيث وقفت في مواجهة جيش الشام ، وكان عبيد الله قد جعل على مقدمته قيس بن سعد .

وقد أودع ثقته التامة بابن عمه وقدمه على قيس ، ولم يكن يتصور فيه الخيانة بعد أن كان قد وتره معاوية بقتل ولديه في اليمن على يد بسر بن أبي ارطاة .

وفي مسكن بدأت تظهر بوادر الفتنة بوضوح ، وانطلقت دسائس معاوية تشق طريقها إلى المعسكر حيث تجد المجال الخصب بوجود المنافقين ، ومن يؤثرون العافية وكانت الشائعة الكاذبة « ان الحسن يكاتب معاوية على الصلح فلِمَ تقتلون أنفسكم . . »[1]

وارتبك الموقف أمام القائد وسرت همهمة في الجيش عن صدق الشائعة وكذبها ، فبين مصدق لها وبين مكذب وبين من

---

(١) شرح النهج لابن ابي الحديد ج ١٦ ص ٤٢ .

يحاول إثباتها على أي حال .. ولم يحاول القائد عبيد الله أن يتأكد من كذب هذه الشائعة وبُعدها عن الواقع ، لأن الحسن كان مشغولاً في تلك الأثناء ببعث الرسل إلى الأطراف وتهيئة الكتائب اللاحقة بالطلائع ومكاتبة معاوية بالحرب وبعث الحماس بخطبه اللاهبة المحرضة على القتال ، ولم يكتب في صلح ولم يكن من رأيه آنذاك .

وانطوى القائد الحائر على نفسه يفكر في مصيره ، وكان قد بلغه تخاذل الكوفيين عن التحرك نحو المعركة ، وتباطئهم عن تلبية نداء الجهاد ، وتصور بأنه قد تورط في موقف لا يغبط عليه ، فإن هذه الطلائع المتقدمة من جيش الكوفة والتي تقف في مواجهة جيش الشام المكتظ كيف يمكن أن تقاوم تلك الجموع الحاشدة أو تلتحم معها في معركة مع فقدان توازن القوى بينها .

ولم تكن الاستقالة واردة في حسابه ، لأنها لا بد أن تكون عن سبب مشروع بعد أن كان تعيينه منطلقاً من رأي الامام وليس من سبب يمكنه أن يتعلل به في ترك مقر القيادة والاستقالة سوى الاعتراف بالعجز وهو أمر يصطدم بحس الأنانية الذي يعتمل بين جوانحه ، ويعرض شخصيته لسخرية الناس وهزئهم .

والتمس المخرج لنفسه ، وكانت رسائل معاوية قد وصلته وهي تحمل في طياتها عوامل الاغراء التي تمس الوتر الحساس في

نفس ابن عباس من حبه للتعاظم وتطلعه للسبق ..

يقول معاوية في رسالته له ..

« ان الحسن قد راسلني في الصلح ، وهو مسلم الأمر إليّ فإن دخلت في طاعتي كنت متبوعاً ، وإلا دخلت وأنت تابع » وجعل له فيها ألف ألف درهم (١) .

وكان أسلوب معاوية في حربه مع أعدائه هو استغلال نقاط الضعف في خصمه ، واستغلال كل ما من شأنه أن يوهن العزيمة ويشل القوى فيه .

وهكذا انكفأ ابن عباس على نفسه واستجاب لداعي الخسة والخيانة مستسلماً لعدوه الذي وتره بابنيه مخلفاً وراءه لعنة التاريخ .

وقد شاء لنفسه أن ينحدر إلى هذا المستوى الساقط فيدخل حمى معاوية ليلاً دخول المهزوم المخذول ، الذي يأباه كل حر له ضمير لو كان له ضمير ..

وينبلج الصبح ويفتقد المعسكر قائده فترقص قلوب المنافقين والمسالمين ، وتدمى عيون المخلصين ، هذا والحسن لا يزال في

---

(١) ابن ابي الحديد شرح النهج ج ١٦ ص ٤٢ .

موقفه الصلب،وتأتي الرسل من المدائن بقرب تحرك الإمـام نحو المعركة .

وتصل أنباء استسلام عبـــد الله لعدوه إلى المدائن ويشيع جو من المحنة في النفوس كما هو الحال في مسكن ، ويشعر الإمام بالطعنة في الصميم تأتيه من أقرب النـاس إليه وأخصهم بـــه وتتسرب إليه أنباء عن مكاتبـــة بعض رؤساء الأجناد والقواد لمعاوية وطلبهم الأمان لأنفسهم وعشائرهم ، ومكاتبة معاويـــة لبعضهم بالأمان والمواعيد [1] .

ذكر في الأعيان عن الصدوق في العلل :

« ان معاوية دس إلى عمرو بن حريث ، والأشعث بن قيس ، وحجار بن ابجر ، وشبث بن ربعي ، دسيساً أفرد كل واحـد منهم بعين من عيونه ، انك إذا قتلت الحسن فلك مائــــة ألف درهم ، وجند من أجناد الشام وبنت من بناتي فبلغ الحسن عليه السلام ذلك فاستلأم ولبس درعاً وسترها وكان يحترز ولا يتقدم للصلاة إلا كذلك فرماه أحدهم في الصلاة بسهم فلم يثبت فيه لما عليـه من اللامة [2] ..

وفي الأعيان عن الخرايج :

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢٢ عن المفيد .

(٢) نفس المصدر .

« أن الحسن بعث إلى معاوية قائداً من كندة في أربعة آلاف فلما نزل الأنبار بعث إليه معاوية بخمسماية ألف درهم ، ووعده بولاية بعض كور الشام والجزيرة ، فصار إليه في مائتين من خاصته ثم بعث رجلاً من مراد ففعل كالأول بعدما حلف بالأيمان التي لا تقوم لها الجبال انه لا يفعل ، وأخبرهم الحسن أنه سيفعل كصاحبه [1] .. »

ويقف الإمام أمام هذه النكبات والمحن المتتالية ، متطامناً على نفسه ناظراً في أمره ، وإلى أين ستنتهي به هذه المسيرة .

والذي يظهر لنا من بعض النصوص ، أن ابن عباس لم يفر وحده بل خرج معه عدد وفير من الزعماء والقواد والجند وهو أمر يمكن أن يساعد عليه الجو المشحون بالتشاؤم ، في أن ينتصر الإمام على عدوه . وسنقرأ عليك فيا بعد ما ورد من النصوص بذلك .

ويكاد الأمر ينتقض على الإمام في مسكن ، ولكن القائد الشرعي وهو الرجل المؤمن الصامد قيس بن سعد بن عبادة الذي جعله الإمام خلفاً لعبيد الله بن العباس إذا حدث به حدث [2] حاول الحفاظ على البقية الباقية من معنويات الجيش المنهارة بانهزام القائد وإقرار التماسك بين فرقه وأفراده فقام فيهم خطيباً وقال :

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢٢ .
(٢) ابن ابي الحديد ، شرح النهج ج ١٦ ص ٤٠ .

« أيها الناس : لا يهولنكم ولا يعظمن عليكم ما صنع هذا الرجل المولّه إن هذا وأباه وأخاه لم يأتوا بيوم خير قط ان أباه عم رسول الله خرج يقاتله ببدر فأسره أبو اليسر كعب ابن عمرو الأنصاري فأتي به رسول الله فأخذ فداءه فقسمه بين المسلمين . وإن أخاه ولاّه علي البصرة فسرق ماله ومال المسلمين . فاشترى به الجواري وزعم أن ذلك له حلال وإن هذا ولاّه علي اليمن فهرب من بسر بن ارطاة وترك ولده حتى قتلوا وصنع الآن هذا الذي صنع [1] »

وهكذا اندفع قيس الصامد في موقفه المؤمن بهدفه ، يودع سلفه بهذه الكلمات الساخرة اللاذعة التي تكشف عن الماضي المزيل له وعن نفسيته الساقطة التي دفعته للتردي في هذا المنحدر السحيق مستحقاً بما اقترف لعنة الأجيال والتاريخ .

وقد فعل قيس في نفوس سامعيه ما أراد، فانطلقت الحناجر بحماس وتوثب تنادي :

« الحمد لله الذي أخرجه من بيننا .. »

واحتفظ قيس بتماسك الموقف الذي كان عرضة لانهيار

(١) مقاتل الطالبين ص ٣٥ .

مرتقب وعاد النظام يسيطر على عناصر الجيش واطمأن الناس لقائدهم الجديد .

وهنا .. حيث انتهت مسرحية فرار عبيدالله .. نعود إلى المدائن، لننظر ماذا حلّ بالموقف هناك بعد تواتر الأنباء بانهزام عبيدالله ومن لف لفه .

وكان قيس قد كتب للإمام ، وهو في المدائن يخبره بفرار عبيدالله يقول قيس :

« .. انهم نازلوا معاوية بقرية يقال لها الجنوبية ، بازاء مسكن ، وأن معاوية أرسل إلى عبيدالله بن العباس يرغّبه في المصير إليه ، وضمن له ألف ألف درهم يعجل له منها النصف ، ويعطيه النصف الآخر عند دخوله الكوفة ، فانسلّ عبيد الله في الليل إلى معسكر معاوية في خاصته ، واصبح الناس قد فقدوا أميرهم ، فصلى بهم قيس بن سعد ونظر في أمورهم »[1] .

وهكذا : أخذت الأنباء تتوارد على الإمام في المدائن بفرار الخاصة من القواد ، والزعماء ، وأهل الشرف ، والبيوتات ، كما تسمّيها بعض المصادر، وقد تبع إنهزام هؤلاء فرار كثير من

---

(١) الارشاد ص ١٧٠ .

الجند ، حيث كان إنهزامهم سبباً لحدوث تمرد شامل في الجيش .

وقد ارتفعت أرقـــام الفارين إلى معاوية بعد فرار عبيدالله وخاصته إلى ثمانية آلاف ، كما يذكر اليعقوبي في تاريخه يقول :

« إنه ـ يعني معاوية ـ أرسل إلى عبيدالله بن عباس ، وجعل له ألف ألف درهم فصار إليه في ثمانية آلاف من أصحابه ، وأقام قيس بن سعد على محاربته » .

وإذا أخذنا في اعتبارنا أن الجيش كان في مسكن اثني عشر ألفاً ، فيكون نسبة الفارين منه إلى معاوية ، هي ثلثـــا الجيش هناك ، وهي نسبة مخيفة وهائلة ، وليكن معلوماً أن جيش معاوية في مواجهته ، كان ستين ألفاً يضاف إليها ثمانية آلاف ، وهم الفارون إليه .

وحقاً إنها صدمة رهيبة ، ومحنة حادة تتداعى أمامهـــا القوى وينهار بها ميزان الموقف . وتنفرج بها أنياب الكارثة عن مأساة مرعبة يتحمل ثقلها ومسؤولياتهـــا ، عبيدالله بن العباس أمام الله والتاريخ .

والشيء الذي يمكن أن نفهمه من هذا الفرار الجماعي ، هـو وجود تآمر على الخيانة في أوساط جملة من الزعماء والوجـوه ، وإلا فبأي قاعدة منطقية يمكن تفسير فرار ثمانية آلاف مقاتل من جيش مقاتل في فترة قصيرة ، وهل يكون ذلك إلا عن سابق تفكير وإحكام لخطة خائنة .

ويقف الإمام في موقف الحيرة يبحث في نفسه عن مخرج لهذا المأزق الحرج ، الذي تداعت به معنويات جيشه في مسكن وتزلزلت منه قوى جيشه في المدائن ..

ووازن بين جيشه وجيش عدوه ..

كان جيشه يتألف من عشرين ألفاً فقط ، كما أجمعت عليه المصادر التاريخية في مقابل ستين ألفاً يتألف منها جيش معاوية، وبعد اسقاط الثمانية آلاف التي فرت من مسكن بعد فرار القائد عبيدالله ، تكون نسبة جيش الإمام إلى جيش معاوية نسبة الخُمس .

وينهار الميزان بينهما في الحسابات العسكرية ..

هذا إذا أغمضنا عما تقوله بعض المصادر من فرار بعض أفراد الجيش في المدائن ، ممن استهوتهم المطامع بالاستيلاء على المغانم والأسلاب ، إذا قدّر الانتصار لجيش الإمام الحسن عليه السلام ، فواكبوا مسيرة الجيش، ثم فروا بعد أن ظهر لهم تغلب الطرف الآخر عسكرياً، لتفوقه في العدّة والعدد .

ومما زاد في تهالك الموقف حرب الإشاعات الكاذبة التي ابتدعها معاوية كسلاح ينفذ منه للقضاء على البقية الباقية من معنويات الجيش في مسكن والمدائن ، وسنذكر هنا لقطاتٍ من تلك الشائعات ومدى تأثيرها على المعنويات العامة في جيش الإمام الحسن عليه السلام بكلا شقّيه في المدائن ومسكن .

وقد قذف معاوية كل ما في دخيلته من خبث ومكر وتلوّن فينسج خدعه وأباطيله تلوّناً مخيفاً ضمن له كل ما أراد من الوقيعة بالجيش الكوفي وتفتيت قواه .

وكان اختياره للأكاذيب ينم عن خبرة دقيقة في حبكها وانتقائها فأرسل من يدس في معسكر المدائن :

« .. بأن قيس بن سعد وهو قائد مسكن بعد فرار ابن عباس قد صالح معاوية وصار معه ..[1] »

« ويوجه إلى عسكر قيس في مسكن من يتحدث أن الحسن قد صالح معاوية وأجابه .. [2] »

ثم ينشر في المدائن إشاعة خبيثة وهي :

« .. ألا إن قيس بن سعد قد قتل فأنفروا .. »

فنفروا بسرادق الحسن فنهبوا متاعه فنازعوه بساطاً كان تحته فازداد لهم بغضاً ومنهم ذعراً ، ودخل المقصورة البيضاء في المدائن .. [3] »

وهكذا : طوقت موجة الشائعات المتدفقة بمكر معاوية وخبثه جناحي الجيش في المدائن ومسكن ، وفصمت ما تبقى له من تماسك وكانت مدعاة لزلزلة فئات كثيرة من غوغاء الناس

(١-٢) اليعقوبي ج ٢ ص ١٩١ .
(٣) ابن الاثير ج ٣ ص ٢٠٣ .

المتأرجحين بين الطاعة والعصيان ، ومحبي الفتن والاضطرابات .

وما الذي ينتظر أن تفعله الشائعات في جيش كجيش المدائن الذي سبق وانه علم بخيانة قائد مسكن الذي لم يكن قيس بمنزلته في نظره فلمَ لا يصدق خيانة قائدها الثاني أو خبر قتله ..

وليس جيش مسكن بأقل حظاً من تأثير هذه الشائعات وقد سبق له خيانة قائده. وفرار من فر من زعمائه وقادته وعدد وفير من أجناده .

وجاء الوفد الشامي المؤلف من المغيرة بن شعبة ، وعبد الله بن كريز ، وعبد الرحمن بن الحكم وهو يحمل كتب أهل العراق ليُطلع الحسن عليها وليعرف ما انطوت عليه دخيلة أصحابه ممن أضمروا السوء وتطوعوا في صفوف جيشه لاذكاء نار الفتنة عندما يحين موعدها المرتقب .

ونُشر الكتب بين يدي الإمام الحسن ولم تكن لتزيده يقيناً على ما يعرف من أصحابها من دخيلة السوء وحب الفتنة وكانت خطوطهم وتواقيعهم واضحة لديه وصريحة .

وعُرض الصلح على الإمام بالشروط التي يراها مناسبة ولكن الإمام لم يشأ أن يعطيهم من نفسه ما يرضي به طموح معاوية وكان دقيقاً في جوابه ، بحيث لم يشعرهم فيه بقبول الصلح أو ما يشير إلى ذلك ، بل اندفع يعظهم ويدعوهم إلى الله عز

وجل وما فيه نصح لهم وللأمة ويذكرهم بما هم مسؤولون بـه أمام الله ورسوله في حقه .

ولكن المغيرة ورفاقه ممن طبع الشيطان على قلوبهم وعلى أبصارهم غشاوة أنـّى تنفع معهم العظة أو يعيدهم عن غيهم تذكير أو ترهيب ، ولقد كان معاوية دقيقاً في اختياره لهم لينفـذوا له هذا الجانب من الخطة البارعة وليحبكوا له هذه الخدعة الرهيبة في سلسلة خدعه والتي كانت بداية النهاية لفصول المأساة التي انتهت بتوقيع عقد الصلح بينه وبين الامام .

وحين رأى المغيرة ورفاقـه أن الدور الأول من الرواية التي دبّجها خبث معاوية ومكره قد فشلت في إقناع الإمام بالصلح بل بقي موقفه صامداً أمام هذه المؤثرات القوية الصاعقة انتقلوا لتمثيل الدور الثاني الذي ان لم يكن مضمون النتـائج فوراً .. فلا أقل من أنه سيترك أثراً سيئاً يزيد موقف الإمـام حراجة وضعفاً ..

وغادر الوفد مقصورة الإمام مستعرضاً مضارب الجيش الذي كان يترقب نتائج مفاوضات الوفد وما توصل إليه من اتفاق على الصلح أو المضي على درب المعركة ..

وتشوّف الجيش إلى الوفد وهو يغادر الإمام وباهتمام بالـغ لعله يسمع منه كلمة تدل على نتائج المفاوضات ويرفع أحد أفراده صوته ليسمعه الناس :

« ان الله قد حقن بابن رسول الله الدماء وسكّن الفتنة وأجاب إلى الصلح .. [1] »

وهكذا : مثّلوا دورهم هنــا أروع تمثيل ، وخلقوا جواً لاهباً من المأساة تدهور على أثرهــا الموقف . وتفجرت كوامن الفتنة واضطرب تماسك الجيش ولاحت في الأفق بوادر المحنــة فأي غائلة هذه التي ألهب نارها المغيرة ورفاقه ؟

وثارت المحكّمة .. حيث مست كلمة الثالوث الشامي الخبيث الوتر الحساس فيها ، فقد كانت هذه الفئــة تطالب بالحرب بإصرار ، فهي ما انضوت تحت لواء الإمام الحسن إلا لتحارب معاوية ولتقضي عليه ، وفي تصورها الساذج أن انضمام جيش المدائن إلى من تبقى في مسكن من الجيش يكفي لمواجهة العدو ، غير آخذة في اعتبارها التفوق العددي له ..

ولعل الموقف الطبيعي في هذه المرحلة الدقيقة من المحنــة ، إلتزام جانب الحكمة ، والتفكير طويلاً قبل اتخاذ أي موقف نهائي لحسم المشكلة ، فهناك في الجيش من يرى الحرب هي الحل الحاسم ، الذي لا يمكن تخطيه لأي سبب كان .. وهنــاك من يرى السلم والموادعة ، إيثاراً للعافيه، وهروباً من حرج القتال .

وإذا أخذنا باعتبارنا ما خلفته الشائعات الشامية بين عناصر

---

(١) في هذا البحث يقرأ اليعقوبي ج ٢ ص ١٩١ .

الجيش من الاضطراب والتفكك ، وإنهيار المعنويات العسكرية ، التي هي قوام الحركة للجيش عند الإلتحام مع قطعـــات العدو أثناء القتال .

وإذا أخذنا باعتبارنا أيضاً ، إنفصال جناحي الجيش الكوفي في مسكن والمدائن بمسافاتٍ كبيرة، بحيث يكون اتخاذ الموقف المتسرع من جانب الإمام بالحرب، وإعلام عدوه بذلك ، مدعاةً لحسم الموقف لصالح معاوية إذ لم يتبق في مسكن من أفراد الجيش إلا أربعة آلاف ، بعد فرار ثمانية آلاف منه ، وفيهم الوجـوه والزعماء ، وأصحاب البيوتات كما قرأت آنفاً ..

وهنا يسهل على معاوية ضرب جناح مسكن ، وتصفيته قبل أن يصله أيُّ مدد من المدائن ، وكيف يمكن توفر الصمود لأربعة آلاف في مواجهة ستين ألفاً، مهما فرض لهم من القوة والصمود.. لو رجعنا للحسابات العسكرية .

وتبقى المدائن وأمرها سهل ، فلا تزال جيوب الخيانـــة معشعشة في أطرافها، وهي لن تعاني كثيراً في سبيل إنهاء الوضع لصالح معاوية بأساليبها الرهيبة ، مع ما عليه الجيش من إنهيــار وارتباك .

إذا أخذنا في اعتبارنا كل هذا ، فليس من اللباقة العسكرية والحكمة القتالية ، إعتماد موقف الحرب ، والدخول في معركة مع الخصم ، فإن النهاية ستكون لصالحه لا محالة ، ولا أقـــل على

الأكثر ، بنحو تكون نسبة النصر في جانب الإمام ضئيلة جداً .

ولكن الإمام لم يتخذ أيّ موقف في هـــذه اللحظات من المحنة ، ولم يشأ أن يتخذ موقفاً منفصلاً عن رأي عامة الجيش ، ولذا نرى أن جوابه للوفد الشامي كان بدعوته إلى الله سبحانه ، ونصرة الحق ، مهملاً الإجابة على رسالته الأساسية ، وهي الدعوة للصلح بنفي أو إثبات .

وخرج الوفد .. ليمزقَ ما كان قد تبقى من تماسك ووحدة بين عناصر جيش الإمام ، بتلك الكلمات الخبيثة الكاذبـــة ، وكانت عملية اختبار ناجحة ، لخطة مرعبة ، نفذها معـــاوية بلؤمه ومكره .

معاهدة الصلح

وهناك في مسكن تقرر الصلح ،وابتدأ عهد جديد .. سموه عام الجماعة ، ونسمّيه عام المحنة .

إلى هنا لم يتخذ الإمام الحسن عليه السلام موقفاً جديداً بعد، فهو لا يزال يتمسك بموقف الحرب استمراراً لموقفــه السابق ، ولم تظهر منه أيّ بادرة تشير إلى التراجع عنه .

ولكن الإمام وهو البصير بالمرحلة ، لا بد وأنــه استمرض بنفسه تطورات الوضع ، من حين خروجــه من الكوفــة إلى اللحظات الدقيقة التي يعيشها في المدائن ، ولا بد أنه لاحظ مــا آل إليه أمر الجيش من التمزق وانهيــار المعنويات العسكرية ، خصوصاً بعد خروج الوفد من عنده .

إذن .. ما هو الموقف ، الذي يفترض أن يتخذه الإمــام في هذه المرحلة الخانقة من الصراع ..؟

ألحرب ..؟

ألصلح ..؟

أو أي شيء آخر ؟

ولكن الإمام لم يحدد لنفسه موقفاً معيناً قبل أن يختبر جنده ليتأكد له إلى أي مدى سيصمد معه جيشه في لحظات العنف ، ولينكشف له صريحاً واقع جيشه المكفهر الغامض .

فخرج وخطب الناس خطبة قال فيها :

« ألا إن معاوية دعانا لأمر ليس فيه عز ولا نصفة ، فإن أردتم الموت رددناه عليه ، وحاكمنــاه إلى الله

عز وجل بظبا السيوف ، وإن أردتم الحياة قبلنا ، وأخذنا لكم الرضا .. »

فناداه الناس من كل جانب :

« البقية البقية ، وأمض الصلح .. [1] »

وهنا انكشف للإمام واقع النهاية ، فالجيش مجتمعاً ، أو الأكثر منه تواق للسلامة ومؤثر للعافية ، فهو يطلب البقيا وإمضاء الصلح .

وتنطفىء آخر ومضة من الأمل في نفس الإمام ، فها هو الجيش قد أمضى الصلح بهذه السرعة الهائلة، ولم يذكر المؤرخون أيّ معارضة قد تكون صدرت من بعض الفئات المفروض فيها ذلك ، كالمحكّمة مثلاً .. ولعلها وجدت أن المرحلة لا تحتمل الدخول في معركة خاسرة حتماً مع الخصم ، وأدركت سر الموقف المتدهور آنذاك ، وأياً كان فلم يبق أمام الإمام الحسن خيار غير الصلح ، والتسليم بالأمر الواقع .

إلى هنا نقف عند حديث المدائن ، على أن نعود إليه فيما بعد .

ولننقل حديثنا إلى مسكن ، وقائدها قيس المؤمن الصامد ،

---

(١) إبن الاثير الكامل ج ٣ ص ٢٠٤ ورواها الطبري وابن خلدون وغيرهم من المؤرخين .

فقد بلغت انباء الصلح مسكن في رسالة أرسلها الإمام الحسن لقيس ، يطلب فيها منه الدخول في الجماعة ، وموافاته بمن معه من الجيش ، ولكن قيس وكأنه لم يكن يترقب تلك النهاية المأساة ، تحامل على نفسه محاولاً ابتلاع الصدمة ، فكبرت عنه وكان أن هاج وماج ، وتفجرت من روحه حمم الشهامة ، والإخلاص لمركز إمامه ، فهو لا يطيق أن يتمثل معاوية متربعاً على دست الخلافة ، وهو ذلك الطليق ابن الطليق الذي أحال الأرض بحراً من الدم ، وزرعها من أشلاء الضحايا ، في سبيل نيل مطامعه وأغراضه الخبيثة ، وبلا أن يكون هناك أي وازع ديني أو إنساني لديه .

لم يتحمل قيس هذه النهاية ، فأراد اختبار أصحابه والتعرف على دخائل نفوسهم ، إزاء هذا الموقف المأساة ، فقام خطيباً فيهم وقال :

« .. أيها الناس : اختاروا الدخول في طاعة إمام ضلالة ، أو القتال من غير إمام .. »

« فقال بعضهم : بل نختار الدخول في طاعة إمام ضلالة ، فبايعوا معاوية ، وانصرف قيس فيمن تبعه [1] » .

ويذكر ابن الأثير بعد هذا رواية أخرى وهي :

---

(١) الكامل ابن الاثير ج ٣ ص ٢٠٤ .

« .. وقيل ان قيس كان هو الأمير على ذلك الجيش في المقدمة على ما ذكرنا ، وكان شديد الكراهية لإمارة معاوية بن أبي سفيان ، فلما بلغه أن الحسن بن علي قد صالح معاوية ، اجتمع معه جمع كثير ، وبايعوه على قتال معاوية حتى يشترط لشيعة علي على دمائهم وأموالهم وما كانوا أصابوا في الفتنة ، فراسله معاوية يدعوه إلى طاعته ، وأرسل إليه بسجل وختم في أسفله وقال له :

أكتب في هذا ما شئت فهو لك .

فقال عمرو لمعاوية : لا تعطه هذا وقاتله .

فقال معاوية : على رسلك ، فإنا لا نخلص إلى قتلهم حتى يقتلوا أعدادهم من أهل الشام ، فما خير العيش بعد ذلك ، فإني والله لا أقاتله أبداً ، حتى لا أجد من قتاله بدأ ، فلما بعث إليه معاوية ذلك السجل ، إشترط قيس له ولشيعة علي الأمان على ما أصابوا من الدماء والأموال ، ولم يسأل في سجله ذلك مالاً وأعطاه معاوية ما سأل ، ودخل قيس ومن معه في طاعته ..[٢] »

وفي الأعيان ينقل عن أبي الفرج رواية تختلف عن هاتين الروايتين ، في الحديث عن موقف قيس قال :

« .. وأما قيس بن سعد بن عبادة ، فقال أبو الفرج : إنه

---

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٥ .

نهض بمن معه لقتـال معاوية ، وخرج إليهم بسر بن أرطـاة في عشرين ألفاً ، فصاحوا بهم هذا أميركم قد بايع ، وهـذا الحسن قد صالح ، فعلام تقتلون أنفسكم .

فقال قيس لأصحابه : إختاروا أحد اثنين :

إما القتال من غير إمام، أو تبايعون بيعة ضلال.

قالوا : بل نقاتل بلا إمام .

فخرجوا وضربوا أهل الشام حتى ردوهم إلى مصافهم .

وكتب معاوية إلى قيس ، يدعوه ويمنيه ، فكتب إليه قيس: لا والله لا تلقـاني إلا وبيني وبينـك السيف والرمح ، وجرت بينهما مكاتبات ، أغلظ كل منهما فيهـا لصاحبه ، فقال عمرو بن العاص لمعاوية : مهلاً ، إن كاتبته أجابك بأشد من هذا ، وإن تركته دخل فيما يدخل فيه الناس ، فأمسك عنه .. [1] »

وموارد الاختلاف بين الروايتين الأخيرتين واضحة ، فرواية الأعيان عن أبي الفرج تحدثنا :

١ — عن أن أصحاب قيس ، بعد أن خيّرهم بين الدخول في الطاعة أو القتال بلا إمام أجابوا : بالقتال بلا إمام .

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢٣ .

٢ ـ عن وقوع قتال بين جيش قيس وأهل الشام بقيـــادة بسر بن أرطاة .

٣ ـ وأن هناك مراسلات حادة جرت بين معاوية وقيس .

٤ ـ وأن عمرو بن العاص هو الذي نصح معاوية بترك قيس وشأنه ، حتى يدخل فيا دخل فيه الناس .

٥ ـ ولا ذكر فيها لموقف قيس من البيعة بعد ذاك .

ورواية إبن الأثير تحدثنا :

١ ـ أن قيس لم يقاتل ، بل اجتمع معه جمع كثير على قتال معاوية ، حتى يشترط لشيعة علي على دمائهم وأموالهم وما كانوا أصابوا في الفتنة .

٢ ـ وأن معاوية راسله ، وأرسل له سجلاً مختوماً في أسفله ليشترط فيه ما يشاء .

٣ ـ وأن معاوية أعطاه ما أراد .

٤ ـ وأن عمرو بن العاص طلب من معاوية قتـــال قيس وعدم إعطائه أي شرط ، ولكن معاوية نهره لأن ذلك سيكلفه الكثير من الضحايا .

٥ ـ وأن من مع قيس بايعوا ، ودخلوا جميعاً في الطاعة .

أمـا رواية ابن الأثير الأولى ، فهي تختلف عـــن كلا

الروايتين في أن قيس بعد أن خير أصحابه بين القتال بدون إمام ، أو الدخول في طاعة إمام ضلالة ، إختاروا الدخول في طاعة إمام الضلالة، وأنه بايع بعد هذا، ولم يذكر فيها ملابسات البيعة ..

والذي يظهر لنا بدواً .. أن الرواية الأولى لابن الأثير هي الأقرب للصواب لأمور :

١ ــ إيمان قيس الصامد بإمامه ، ورعايته لمقامه ، وتقيُّده برأيه ، كما عودنا في مواقفه الرائعة التي مر عليك بعضها ، ولا يتصور أن يقف قيس هذا الموقف الصريح في المخالفة والمعاندة لموقف الإمام .

٢ ــ أن الطبري وابن الأثير وغيرهما لم يتحدثا عن وقوع قتال بين قيس وجيش الشام ، والدواعي متوافرة على ذكره لو كان ، وقد تفرد أبو الفرج على ما يظهر بنقلها .

٣ ــ ان أكثر جيش الكوفة كان ميالاً للسلامة ، ومؤثراً للعافية ، وهو حين خرج ، لم يخرج بملء اختياره ونتيجة لإندفاعه وقد مر عليك تفصيل ذلك .

٤ ــ أن الحالة النفسية للجيش كانت متهالكة ، وقد أثقلت منه الأزمات المفتعلة كاهله المتداعي ،فهو يبحث عن حل للخلاص من هذا المأزق ، وقد جاءت عملية الصلح مخرجاً مريحاً له .

٥ – أن قيس ومن معه لم يكونوا بهذه المثابة من السذاجة بحيث لا يدركون أن أربعة آلاف مقاتل – إن سلمنا موافقة مجموع من معه على القتال – لا يمكن أن يصمدوا أمام ذلك الحشد الهائل من الجند الشامي، مع من انضم إليهم من العراق قبل الصلح وبعده .

٦ – إنا لا نفهم مغزىً لقتال قيس ومن معه لجيش الشام وهل تكون النهاية إلا الهزيمة أو القتل ؟ ولا شيء بعد هذا .. وهو عمل انتحاري، وموقف غير عاقل .

٧ – وما ذكرته رواية ابن الأثير الثانية، من أن قيس وجمع معه اشترطوا لشيعة علي على دمائهم وأموالهم وما كانوا أصابوا في الفتنة، حتى يبايعوا معاوية فبعيد غايته .. بل ولا مبرر له .

وهل دار في خلد قيس ومن معه، أن الإمام حين يصالح معاوية يغفل عن مثل هذا الشرط ..؟

ولو استعرضنا كلمات الإمام الحسن بعد الصلح، لرأيناها تصرح بما لا يقبل الشك، بأن هدف الإمام الأقصى من الصلح هو حقن دماء أهل بيته وشيعته وأنصاره .

ولعل هذا الشرط، كان من أهم الشروط التي أخذها الإمام على معاوية في معاهدة الصلح .

ومن القريب جداً .. أن يكون الإمام قد ذكر عمومات

الشروط في كتابه لقيس حين دعـاه للدخول معه في الصلح وإن لم يكن في الكتاب شيء من ذلك ، فلا أقل من أن يكون قد بلغه عن طريق الرسول أو غيره .

على أن قيس ليس ممن يغفله الإمام في مثل هـذه الفترات وهو أحد الزعماء القلائل ، الذين يعتمد عليهم في المهمات .

وبعد هذا : فأي فائدة في اشتراط قيس مـا اشترط بعـد شرط الإمام ؟ ولو فرضنا أن ذلـك من باب التأكيد ، فهـل تأكيد الشرط سيجبر معاوية على الوفاء . لو شاء عدم الوفاء وقد انقادت له الأمور ، وخضعت له الأمة ؟

وعلى هذا فيترجح لدينـا أن الرواية الاولى لابن الأثير هي الأقرب إلى طبيعة الموقف .

على أن الرواية الثانية لابن الأثير لم يرسلها إرسال المسلمات كما هو ديدنه في غيرها من الأخبار والحوادث ، بل نسبهـا إلى القيل ، مما يضعف مستندها عنده .

مضافاً إلى أن الرواية الأولى ليس فيها مخالفة لكلا الروايتين الأخيرتين ؛ إلا جواب أصحـاب قيس له باختيار بيعة إمـام الضلال على القتال بلا إمام ، وهو كما قلنا : موافق لطبيعة الجو النفسي العام لجيش الكوفة .

ومن هذه المحاكمة الدقيقة للنصوص ، يظهر لنا أن قيس لم

يقم بأي نشاط مناهض لموقف الإمام ، ولكنها حمى الصدمة هي التي ألهبته ، ليخيّر جنده بين الأمرين ، وربما ليختبر أصحابه وهو الأعرف بواقعهم ، حين قام خطيباً بهم في الكوفة مؤنباً لهم على تخاذلهم عن الاستجابة لنداء إمامهم ، وليكشف للملأ عذر الإمام الحسن في اختياره لطريق الصلح .

واخيراً : سلم قيس بالأمر الواقع مكرهاً ، كما سلم إمامه من قبله مكرهاً ..

ولكن كيف بايع ، وهل بعد أن وُضع السيف والرمح بينه وبين معاوية ؟ وهل أنه هو الذي صَفَّقَ على يد معاوية ،أو أن معاوية اكتفى بأن صفق يده على ظاهر كف قيس ؟ لأن قيس لا يحتمل أن يضع يده في يد من لم تجف كفه بعد من دماء المسلمين ، التي أراقها في سبيل الملك والتسلط على رقاب العباد بغير حق ، أو أن قيس لم يبايع بل رجع من توّه إلى الكوفة ؟.

كل هذا لم يمحّصه لنا التاريخ ، وليس يهم عندنا ، ما دام قيس قد سلم للواقع ، ودخل في الجماعة ..

ونعود إلى حديث المدائن ، هناك رواية تقول : بأن الحسن قد طعن حين استشعر منه بعض أصحابه أنه يريد الصلح ، من خطاب خطبه فيهم ، ولكن الحسن حين رأى ما عليه أصحابه من الفرقة في الرأي ، وما أحسه من بعضهم من التمايل نحو الدعة والعافية ، أراد أن يختبر أصحابه ، ليميّز بين عدوه ووليّه

وليكون على بصيرة من أمره في لقاء معاوية وجنده من رعاع الشام ، فأمر أن ينادى بالصلاة جامعة ، فاجتمعوا وصعد المنبر وقال :

« .. الحمد لله كلما حمده حامد ، وأشهد أن لا إله إلا الله كلما شهد له شاهد ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ، أرسله بالحق ، وائتمنه على الوحي ، أما بعد : فوالله إني لأرجو أن أكون قد أصبحت بحمد الله ومنّه ، وأنا أنصح خلق الله لخلقه ، وما أصبحت محتملاً على مسلم ضغينة ، ولا مريداً له سوءاً ولا غائلة .

« ألا وإن ما تكرهون في الجماعة ، خير لكم مما تحبون في الفرقة ، ألا وإني ناظر لكم خيراً من نظركم لأنفسكم ، فلا تخالفوا أمري ، ولا تردوا عليّ رأيي غفر الله لي ولكم ، وأرشدني وإياكم لما فيه المحبة والرضا .. »

« فنظر الناس بعضهم إلى بعض ، وقالوا : ما ترونه يريد بما قال ؟ قالوا : نظنه يريد أن يصالح معاوية ، ويسلم الأمر إليه ..

فقالوا : كفر الرجل !

وهذا يدل على أنهم كانوا خوارج ، ثم شدّوا على فسطاطه وانتهبوه ، حتى أخذوا مصلاه من تحته ، ثم شدّ عليه عبدالرحمن

ابن عبد الله بن جمال الأسدي ، فنزع مطرفة عن عاتقه ، فبقي جالساً متقلداً السيف بغير رداء ، ثم دعا بفرسه فركبه ، وأحدق به طوائف من خاصته وشيعته ، ومنعوا منه من أراده فقال :

أدعو لي ربيعة وهمدان ، فدُعوا له ، فأطافوا به ، ودفعوا الناس عنه ، ومعهم شوب من غيرهما .

فلما مر في مظلم ساباط ، بدَر إليه رجل من بني أسد يقال له الجراح بن سنان أو سنان بن الجراح ، وكان قد تقدمه إلى مظلم ساباط فوقف به ، فلما حاذاه أخذ بلجام فرسه أو بغلته وبيده مغوَل ، وهو سيف دقيق يكون غمده كالسوط فقال :

الله أكبر يا حسن ، أشركت كما أشرك أبوك من قبل .. !

ثم طعنه ، فوقعت الطعنة في فخذه ، فشقه حتى بلغ أربيته وفي رواية حتى بلغ العظم .. »[1]

هذا ما نقله في الأعيان عن المفيد وأبي الفرج ، وهو يختلف عما نقله الطبري وابن الأثير وسبط بن الجوزي ناقلاً له عن الشعبي كما مر عليك سابقاً ، من أن هجوم العامـــة على فسطاط الحسن وانتهابه ، لم يكن من آثار الخطبة التي ذكرها هنا ، بل لأن منادياً نادى في العسكر : ألا إن قيس بن سعد قد قتل فانفروا فنفروا إلى سرادق الحسن .. إلى آخر الرواية .

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢١ نقلاً عن المفيد وأبي الفرج .

والذي يظهر لنا من الموازنة بين الروايتين ، صحة رواية الطبري وصاحبيه وأقربيّتها للواقع وذلك :

لأن هذا الخطاب من الإمام ، المفروض أنه كان بعد بعث عبيد الله بن العباس على مقدمته إلى مسكن ، وعند نزوله ساباط قرب المدائن ، ولم يكن حديث الصلح والموادعة قد جرى من أيٍ من الطرفين ، إلا فيما سبق ، حين كان الإمام في الكوفة وقبل تحركه للقتال ، وقدعرفت جواب الإمام لمعاوية على ذلك ورده له ذلك الرد القوي المصمم على الحرب .

وبعيد أن يعمد الإمام، وهو لا يزال ينتظر الجند ليلتحق به من الأطراف ، إلى إقحام حديث الجماعة أو الفرقة ، أو الإشارة لمثل هذا ، ولعل الإمام لم يطرق هذا المعنى حتى عندما قابله الوفد الشامي المرسل من قِبل معاوية كما مر عليك .

كما أن خطابه هذا يتنافى مع خطابه الأخير الذي سبق قراره بالصلح ، حيث ارجع أمر اختيار الصلح للمقاتلة من جيشه كما مر عليك ، وفي خطابه هذا .. نرى أن الإمام عليه السلام يفرض رأيه بالصلح على الجيش ، من دون أن يدع له اختيار الخلاف .

أما حديث الطعنة ، فيؤكده كلام للإمام الحسن عليه السلام ذكره الطبري قال : ثم قام الحسن في أهل العراق ، وذلك بعد الصلح فقال :

« .. يا أهل العراق : إنه سخى بنفسي عنكم

ثلاث ، قتلكم أبي ، وطعنكم إياي ، وانتهابكم متاعي .. [1] »

كما ذكرها غيره من المؤرخين أيضاً .

وحيث انتهينا إلى هنا .. فلا مهرب من الإعتراف بأن الصلح كان هو النهاية الحتمية لهذا التسلسل الرهيب لأدوار المحنة ..

ولم تكن للجيش الكوفي لياقة الدخول في معركة رابحة للخليط الغير المتناسق الذي اشتمل عليه ، وللأحداث التي مزقته فافتقد بذلك صلاحية المواجهة .

وللإمام الحسن عليه السلام كلمة رائعة ، يصف فيها ذلك الجيش المتهالك فقد قيل له ما حملك على ما فعلت فقال :

« كرهت الدنيا .. ورأيت أهل الكوفة قوماً لا يثق بهم أحد إلا غُلب ، ليس أحد منه يوافق الآخر في رأي ولا هواء ، مختلفين ، ولا نية لهم في خير ولا شر ، لقد لقي أبي منهم أموراً عظاماً ، فليت شعري لمن يصلحون بعدي ، وهي أسرع البلاد خراباً [2] »

---

(١) الطبري ج ٦ ص ٩٢ .
(٢) ابن الأثير الكامل ج ٣ ص ٢٠٤ .

وكيف يثق الحسن بالكوفة ، وقد شهد خيانتها بأبيه من قبله ، وخذلانها له في صفين وبعد صفين ، إلى أن ختمت حياته بالشهادة ، وذكر ربه بين شفتيه ، وشهد خيانتها له في محنته التي أدمت قلوب الأجيال ، ومن بعده كانت خيانتها بابن عمه مسلم بن عقيل ، سفير أخيه الحسين عليه السلام إليها بعد أن بايعته وأعطته من نفسها العهد والميثاق ، ثم كانت خيانتها الكبرى في مأساة كربلاء ، التي صغرت أمام عظمتها المآسي التي شهدها التاريخ في مسيرته الطويلة .

وهكذا كانت الخيانة ، هي الطابع العام للكوفة في شتى العصور والأدوار ، وكان لها الحجّاج وزياد واضرابهما خير علاج ..

وقبل أن ندخل في بحث بنود الصلح ، ومناقشة بعض الشبهات التي أثارها بعض الباحثين والمؤرخين حول الإمام الحسن ، يحسن بنا أن نعرض لكلمة نسبها بعض المؤرخين للإمام الحسين ، حين عزم الإمام على الصلح .

في الطبري وابن الأثير ، أن الحسن عليه السلام قال للحسين ولعبد الله بن جعفر : إني قد كتبت إلى معاوية في الصلح ، وطلب الأمان ، فقال له الحسين :

« نشدتك الله أن تصدق أحدوثة معاوية ، وتكذب أحدوثة علي عليه السلام » .

فقال له الحسن :

« أسكت ، فأنا أعلم بالأمر منك [1] »

والذي ينطق به هذا الخبر صريحاً ، أن الحسن قد كتب إلى معاوية بالصلح قبل أن يخاطب الحسين ويعلمه بالأمر ، وكأن الحسن كان منفرداً فيما يقرر وفيما يعمل ، وليس له خاصة ، أو مجلس قيادي ، يعرض عليه القضايا ، ويستشيره في معالجة الأحداث الطارئة .

على ان الإمام كيف يتخذ مثل هذا القرار الخطير الذي يتداعى به كيان حكم عظيم ، بل هو بمثابة إنقلاب معاكس له من دون ان يستشير أهل الحل والعقد ، والقادة من المخلصين له ، ليضمن لنفسه السلامة ولقراره النفوذ ؟ ومن يا ترى أقرب إليه من أخيه وشقيق نفسه الإمام الحسين عليه السلام ؟

وبعد هذا : كيف يمكن أن يصدق أو يخطر في خيال ذي لب ، أن لا يكون الحسين عالماً بقرار الصلح إلا بعد نفوذه؟

على أننا لو سلمنا ذلك ، وأغمضنا النظر عن كل ما ذكرنا فليس من الممكن أن يصدر من الحسين مثل هذا الكلام الجاف الجارح في قبالة أخيه الحسن ، الذي يعيش في أعماقه مرارة المحنة ، وجراح المأساة ، وهو أعرف الناس به ، وأطوعهم إليه وأدناهم منه ، وأدراهم بمقامه ، وهو إمامه الذي افترض الله عليه

(١) الطبري ج ٦ ص ٩٦

طاعته ، ولقد كان لأخيـــه كما كان علي لرسول الله صلوات الله عليهم ، يرى الخيرة فيما يقرر ، والصلاح فيما يفعل ، ولا يمكن أن يصدر عن أمر إلا والمصلحة خدنه ، ولا يعزب عن شيء إلا والمفسدة مصيره .

وهناك موقف للإمام الحسين ، يكذّب الخبر بصراحـــة يقول في الأعيان عن المدائني في حديث قال :

« فالتفت حجر بن عدي إلى الحسن ، وقال كلامـاً لا يخلو من سوء أدب ، حمله عليه شدة الحب ، ثم قال :

« إنّا رجعنا راغمين بما كرهنا ، ورجعوا مسرورين بما أحبّوا »

فتغير وجـــه الحسن ، وغمز الحسين حجراً فسكت فقال الحسن :

« يا حجر .. ليس كل الناس يحب مـا تحب ، ولا رأيه رأيك ، وما فعلتُ ما فعلت إلا إبقاءاً عليك والله كل يوم في شأن »

هذا هو الموقف الصحيح للحسين إزاء أخيـــه الحسن ، فلا يسمح لأحد أن يقول كلمة غير مؤدبة أو جارحـــة في حضرة أخيه ، حتى ولو كان ذلك القائل حجر فيغمزه ليسكت .

ومن الغرابـــة بمكان أن لا يرد للحسين أي ذكر في مختلف

مراحل قضية الإمام الحسن إلا هنا ! وكأنه ليس هناك من دور يقوم به الحسين في هذه المرحلة سوى دور التأنيب والجرح لأخيه بتلك الكلمة القاسية .

ولعلها بدعة مقصودة ، وضعتها يد أثيمة ، ونطقت بهاألسن لئيمة وحاقدة ، لكي تمس بخبثها قدس تلك العلاقة القائمة بين هذين السيدين العظيمين ، اللذين قال فيهما جدهما النبي ﷺ :

« الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة »

« وهما ريحانتاي من الدنيا »

« وهما إمامان قاما أو قعدا »

وغير ذلك من الأحاديث الناطقة بقدسيتهما وعظمتهما .

ولم تكن هذه البدعة من رواة الطبري ، بأهم من بدعة أخرى إبتدعها اللؤم والخبث ، وهي أن الإمام الحسن هو الذي دعا معاوية للصلح ، ثم ينقل قصة هي للوضع أقرب منها للحقيقة (١)

ولو كان الأمر كما ذكر لكان معاوية في غنىً عن استمالة عبيد الله بن العباس وغيره من الوجوه والقادة ، وبذل الأموال لهم ولكان أيضاً في غنىً عن بث حرب الإشاعات ، والتفنن في

---

(١) راجع الطبري ج ٦ ص ٧٤ .

خلقها وإبداعها، وبعث العيون والدساسين لذلك ..

ونحن في غنىً عن مناقشتها الحساب ، بعدما عرضنا عليك سابقاً تطورات الأحداث ، مستمدة من النصوص التاريخية الصريحة والمعتبرة، بعرض متسلسل منهجي [1] .

وفي الطبري آفات وطامات ، ربما يسمح لنا الوقت بدراسة بعض الأحداث من خلاله ، لنرى كيف اشتمل هذا الكتاب على الأغاليط التاريخية ، والأكاذيب والموضوعات ، التي ضللت الكثير من الباحثين فيما توصلوا إليه من نتائج .

وهناك في مسكن تقرر الصلح .. وابتدأ عام جديد ، سموه عام الجماعة ، ونسمّيه عام المحنة .

---

(١) ثمم هناك في إحدى رسائل الامام الحسن (ع) لمعاوية ، عرض من الامام للصلح ، ولكن على أن يدخل معاوية في طاعة الامام ويسلم له القياد. وهذا مما يدعم رأينا في موقف الامام ، وأن إمضاء الصلح لم يكن ليمثل موقف الامام الاساسي ، بل هو منطلق من تأثير العوامل التي أدت إليه وقضت على الامام باختياره ـ يقرأ ابن أبي الحديد شرح النهج ج ١٦ ص ٣٣ ، ٣٦ .

بنود الصلح

وكتب الإمام الشروط وأخذ من معاوية العهد والميثاق على الوفاء وأعطاه معاوية ما أراد مبطناً في داخله الحنث والنكول ..

وبعث معاوية بالسجل المختوم للإمام الحسن ، ليشترط فيه ما يشاء لنفسه وأهل بيته وشيعته ، وكتب الإمام الشروط وأخذ من معاوية العهد والميثاق على الوفاء ، وأعطاه معاوية ما أراد ، مبطناً في داخله الحنث والنكول ، كما هي طبيعة ذاته وفي أي وقت صفا الخبث الأموي للطهر الهاشمي ؟ إنها سلسلة الفتنة والمكر ، تحدرت من أمية لتشتد حلقاتها في يد معاوية ويضيق الخناق فيها على هاشم .

ولم تذكر لنا المصادر التاريخية نصاً صريحاً ومتناسقا لكتاب الصلح ، الذي يعتبر الوثيقة التاريخية لنهاية مرحلة من أهم مراحل التاريخ الإسلامي في عصوره الأولى ، ولا نعرف سبباً وجيهاً لهذا الإهمال .

وقد اشتملت المصادر المختلفة على ذكر بعض النصوص ، مع إهمال البعض الآخر ، ويمكن أن يؤلف من مجموعها صورة الشروط التي أخذها الحسن على معاوية في الصلح ، وقد نسقها بعض الباحثين وأوردها على صورة مواد خمس ، ونحن نوردها هنا كما ذكرها ، ونهمل ذكر المصادر التي ذكرها في الهامش إعتماداً عليه [١] .

---

(١) يراجع صلح الحسن آل ياسين ص ٢٥٢ وقد اعتمد في نقله على أمهات الكتب والمصادر التاريخية كالطبري وابن الاثير وابن قتيبة والمقاتل وغيرها .

وهي هذه :

« ١ ـ تسليم الأمر إلى معاوية على أن يعمل بكتاب الله وبسنة رسوله ﷺ وبسيرة الخلفاء الصالحين .

٢ ـ أن يكون الأمر للحسن من بعده ، فإن حدث به حدث فلأخيه الحسين ، وليس لمعاوية ان يعهد إلى أحد .

٣ ـ أن يترك سب أمير المؤمنين والقنوت عليه بالصلوة ، وأن لا يذكر علياً إلا بخير .

٤ ـ استثناء ما في بيت مال الكوفة ، وهو خمسة آلاف ألف ، فلا يشمله تسليم الأمر ، وعلى معاوية أن يحمل إلى الحسين ألفي ألف درهم ، وأن يفضّل بني هاشم في العطاء والصِلات على بني عبد شمس ، وأن يفرّق في أولاد من قتل مع أمير المؤمنين يوم الجمل ، وأولاد من قتل معه بصفين ألف ألف درهم ، وأن يجعل ذلك من خراج دارا بجر .

٥ ـ على أن الناس آمنون حيث كانوا من أرض الله ، في شامهم وعراقهم وحجازهم ويمنهم ، وأن يؤمن الأسود والأحمر ، وأن يحتمل معاويةَ ما يكون من هفواتهم ، وأن لا يتبع أحداً بما مضى ، ولا يأخذ أهل العراق بإحنة ، وعلى أمان أصحاب علي

حيث كانوا ، وأن لا ينال احداً من شيعة علي بمكروه ، وأن أصحاب علي وشيعته آمنون على أنفسهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم ، وأن لا يتعقب عليهم شيئاً ولا يتعرض لأحد منهم بسوء ، ويوصل إلى كل ذي حق حقه ، وعلى ما أصاب أصحاب علي حيث كانوا .

وعلى أن لا يبغي للحسن بن علي ولا لأخيه الحسين ولا لأحد من أهل بيت رسول الله غائلة ، سراً ولا جهراً ، ولا يخيف أحداً منهم في أفق من الآفاق .

هذه هي المواد الخمس ، التي يمكن الظن قوياً أن تكون بنود الصلح التي تم عليها الاتفاق بين الطرفين ، ولا أقل من أنها تمثّل لنا طبيعة الشروط التي أملاها الحسن على معاوية .

فلم يكن الإمام ليهمل أمر الخلافة بعد موت معاوية ، فقد اشترطها لنفسه فقط كما في بعض المصادر [1] ، وأنها من بعده لأخيه الحسين كما في البعض الآخر [2] ، وأنه ليس لمعاوية أن يعهد بها لأحد من بعده ، كما في بعض المصادر الأخرى [3] .

---

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ص ١٩٤ وابن كثير ج ٨ ص ٤١ والاصابة ج ٢ ص ١٢ وابن قتيبة ص ١٥٠ وغيرهم .

(٢) عمدة الطالب لابن مهنا ص ٥٢ .

(٣) المدائني كما نقله عنه في شرح النهج وابن الصباغ المالكي في الفصول المهمة وغيرهما من المؤرخين .

كما أنه ليس من الطبيعي أن يهمل الإمام مسألة السب لأبيه ورفعه ، بعد أن جعله معاوية فريضة على كل خطيب ومصلٍ .

وكذا أخذ الامان لشيعته وشيعة أبيه ..

وللإمام شؤون كثيرة ، فهو مثقل بعبء بني‌هاشم وأصحابه الأدنين ، وبحكم مركزه .. فلا بد له أن يكون في حوزته من المال ما يكفيه لذلك، فأخذ على معاوية أن يكون له ما في بيت مال الكوفة وغيرها ، وهو شرط طبيعي لا بد أن يورده الإمام في بنود الصلح .

ومن الجدير بالبحث هنا ، معرفة ما إذا كان الإمام الحسن قد تنازل عن الخلافة لمعاوية بما لكلمة التنازل من المعنى الخاص ، واختار بعض الباحثين هذا المعنى بإصرار ، معتمداً في ذلك على مغالطات وجدليات ولعب بالألفاظ ، وجاعلاً من ذلك وسيلة للنيل من مقام الإمام الحسن والتجني عليه ، وسنعرض للمسألة هنا ، ونناقشها من خلال بعض النصوص والوقائع ، لنرى ما إذا كان الإمام قد تنازل فعلاً أم أن هذا أمر لم يقع ..

والملاحظ هنا من مجموع كلمات المؤرخين ، أن الإمام لم يرِد على لسانه ولم يصدر منه‌ما يشعر بالتنازل عن الخلافة بما لهذه الكلمة من معنى ، بل الذي نقلته المصادر ، هو أن الحسن سلم الأمر أو ترك الأمر لمعاوية .

والترك والتسليم ، لا يعني التنازل وإعطاء الأحقية الواقعية

في الحكم للطرف الآخر ، بل هي من باب التسليم بالأمر الواقع ، وترك الأمر حيث لا حيلة للمغلوب على أمره إلا التسليم والترك.

وقد حاول البعض ، أن يرجع صيغة الترك أو التسليم إلى مفاد صيغة التنازل ، ولكنها لا تعدو عن كونها مغالطة لغوية صريحة ، فالتسليم والترك أعم من التنازل ، فقد يتحقق الترك والتسليم بلا أن يكون هناك تنازل ، بل بتوسط القهر والغلبة.

على أنا لو سلمنا ذلك .. فلا يمكن أن يكون التنازل وارداً في حساب الإمام الحسن بحسب الموازين الشرعية للإمامة أو الخلافة ..

فباعتباره الإمام الشرعي بالنص الإلهي، كما عليه الشيعة الإمامية ، فالإمامة صفة ملازمة لوجوده ولذاته لزوماً لاينفك، ولا يمكن لأحد أن يسلبها عنه ، ولا هو نفسه يمكنه التنازل عنها ، أو الانفصال عن مسؤولياتها ، وإلا لكان مخالفة صريحة للحكم الإلهي في اختياره لهذا المنصب ، فكما أنه ليس للنبي أن يخلع عن نفسه سمة النبوة ، فكذا الإمام ليس له أن يخلع عن نفسه سمة الإمامة ، وهو أمر يلتزم به الشيعة في عقيدتهم بالإمامة ، ولهم أدلتهم الخاصة التي تدعم هذا الاعتقاد.

ولنفرض أن الإمام الحسن لم تكن إمامته بالنص الإلهي ، وإنما باجتماع المسلمين على بيعته وتسليم الأمر له ، فليس من حقه التنازل أيضاً ، إلا أن يكون ما يقتضي ذلك ، كالعجز عن

تصريف الأمور ، أو عـــدم أهليته لإدارة شؤون المسلمين ، أو يظهر منه ما يخل بقدسية المنصب وهيبته ، ولم يسجل التاريخ من ذلك شيئاً فيما يرجع للإمام الحسن ، وعلى العكس فقد أثبت له حسن الإدارة ، والتدبير ، والحزم ، والأهلية للحكم ، وبُعد النظر ، وغيرها مما يجب أن تتوفر في رئيس الدولة الحاكم .

إذن التنازل لا يمكن أن يرد في الحساب بما تحمله هذه اللفظة من المعنى الخاص ، وربما يدعم هذه الاتجاه في الاختيار كلمات صدرت عن الإمام الحسن ، تحدد لنا بوضوح موقفـــه من تسليم الأمر لمعاوية ، وانه لم يكن تنازلاً بل تسليماً للملك .

قال في جوابه لبعضهم :

« لا تقل ذلك يا أبا عامر ، لم أذل المؤمنين ، ولكن كرهت أن أقتلهم على الملك [1] »

وقال لآخر :

« أضرب هؤلاء بعضهم ببعض في ملك الدنيا ، لا حاجة لي به .. [2] »

وغير ذلك من الكلمات التي توحي بأن الحسن لم يتنازل عن الخلافة ، بل سلم أمر تصريف أمور الدولة لمعاوية ، وهو التعبير

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٥٢ .
(٢) الاصابة ج ٢ ص ١٢ .

الآخر للملك ، وكان ذلك منه قهراً وغلبة ..

ويؤيد ذلك أيضا .. ما رواه الكليني ، أن الحسن إشترط على معاوية أن لا يسميه أمير المؤمنين ، وما ذكـره الصدوق في العلل : أن الحسن إشترط على معاوية أن لا يقيم عنده شهادة[1] .

هذا تلميح هو أقرب للصراحة ، في عـدم إعتراف الإمام بالخلافة الشرعية لمعاوية ، فهو لا يسميه أمير المؤمنين ، ولا يقيم عنده شهادة ، ولو كان معاوية خليفة شرعياً في نـظر الإمام الحسن بحكم تنازله له ، فأي طلب هذا يطلبه الإمـام الحسن من معاوية ؟

على أنا لو رجعنا إلى بعض خطبه بعـد الصلح ، لاتضحت أمامنا الرؤيا بصورة لا يخامرها الريب .

فقد قال في خطابه يوم الاجتماع في الكوفة :

« .. وإن معاوية زعم أني رأيته للخـلافة أهلا ولم أرَ نفسي لها أهلا ، فكـذب معاوية ، نحن أولى الناس بالناس في كتاب الله عز وجـل وعلى لسان نبيه . [2] »

وهو تصريح خطير ، بأن الولاية له من الله على النـاس لا

---

(١) العلل ص ٨١ .
(٢) حياة الحيوان ج ١ ص ٥٨

زالت قائمة ، حتى بعد تسليم الأمر لمعاوية ، وأن التسليم ليس إلا ترك الملك .

وقال في خطاب آخر وكان معاوية حاضراً :

« وليس الخليفة من دان بالجور ، وعطل السنن ، واتخذ الدنيا أباً وأماً ، ولكن ذلك ملك أصاب ملكاً تمتع به ، وكان قد انقطع عنه واستعجل لذته ، وبقيت عليه تبعته ، فكان كما قال الله عز وجل : وإن أدري لعله فتنة ومتاع إلى حين ..[1] »

وهذا تعريض بمعاوية وأنه ليس أهلاً للخلافة ، وإنما هو ملك يطلب الدنيا ، إشباعاً لنهمه ، واستعجالاً للذته .

وإلى هنا .. لا يمكننا إلا إسقاط تهمة التنازل التي اتخذها جملة من المؤرخين والباحثين وسيلة للنيل من شخصية الإمام الحسن ، وهي تهمة لم يجيدوا حبكها وصياغتها بنحو تعمى عنها أبصار المخلصين .

---

(١) البيهقي في المحاسن والمساوىء ج١ ص ٦٣ .

لماذا الصلح دون التضحية

« لم يمتنع الإمام الحسن عـن الشهادة
وإنما هي التي امتنعت منه » .

حاول بعض الباحثين أن يتجنى على شخصية الإمام الحسن من خلال إبرامه عقد الصلح مع معاوية ، وقياسه مع ثورة الحسين عليه السلام ناسباً للإمام حبه للدنيا ، وإيثاره السلامة على التضحية في سبيل الله .

ولكن هؤلاء لا يخلو أمرهم من ثلاث .

١ ـ إما الجهل في فهم التاريخ .

٢ ـ أو الارتجال في كتابته .

٣ ـ أو التعصب الذي يقلب موازين البحث .

وسنرى حين نستعرض ببساطة النتائج التي تسببت عن عقد معاهدة الصلح ، وأثرها في تقويض الكيان الأموي الغاشم ، سنرى أن التضحية تخضع لحساب الأرقام التي لم تكن متكاملة في تلك المرحلة من حياة الإمام الحسن عليه السلام . .

سؤال يفرض نفسه ، بعد هذا العرض الشامل لواقعة الصلح. لماذا اختار الإمام الحسن طريق الصلح دون التضحية . . ؟ ولنمهد لجوابنا بوقفة سريعة ، لإستعراض بعض النقاط المهمة

التي ربما تلقى بعض الضوء على السر في اختيار الإمـــام الحسن طريق الصلح دون التضحية .

هناك تنافس خطير قائم بين اتجاهين كبيرين ، هما الأمـوية والهاشمية ، أدى إلى كثير من المنازعات بينهما .

والباعث على ذلك كله ، نزعات قبلية وعنصرية ، وكان موقف الهاشمية في مراحلها هو الوقوف موقـــف المدافع عن حقه ، في حين كانت خطة الاموية هي الهجوم وباستمرار .

والسبب في ذلك .. أن الرئاسة كانت منوطة دائماً في قريش ببني هاشم ، فهي مركز الزعامة ، وإليها ترجع العرب في حـل مشاكلها ، لأنها واسطة العقد في قريش ، وقريش هي مركز الثقل بين القبائل العربية .

أما الأموية.. فلم تكن بهذه المثابة من الشرف ، فلم يكن لها أي دور واضح في تصريف القضايا والمشاكل العامة ، كما أنهـا محرومة من المناصب الرفيعة في مكة آنذاك ، كسدانة البيت ، والسقاية ، واطعام الحجيج ، وغيرها من المناصب التي كانت على جانب من الأهمية في النظر العام .

وقد حدثت لذلك منازعات وخطوب بين الإتجاهـين ، إذ ترى الأموية أنها لا تقل عن هاشم في الشرف والمكانة ، فهاشم أخ لعبد شمس فأي امتياز لبني هاشم يرفعهم إلى ما هم عليه من العنوان الشامخ دون بني أمية ؟.

وتأكد هذا التناحر وأسفر بوضوح ، بعد بعثة النبي ﷺ ، فقد رأت النزعة الاموية مجالها الواسع للقضاء على الهاشمية واستئصالها من جذورها ، والتهبت الثورة على بني هاشم ، ابتداء من قضية الشعب وحصرهم فيه ، وتحريم التعامل معهم بشتى القضايا الحياتية .

وكان للاموية دورها الهام في إذكاء نار الفتنة بزعامة أبي سفيان شيخ الامويين ، الذي وجد فرصته النادرة في استغلال هذه الفترة العصيبة التي تمر بها هاشم .

وثارت الأحقاد ، وأفصحت الضغائن عن لؤمها وخبثها .

ودار التاريخ دورته ، وهاجر النبي ﷺ إلى المدينة ليواجه أعباءَ الرسالة هناك ، ويثور الحقد الأموي ، ويتزعم شيخ الأمويين التعبئة العامة ضد النبي ﷺ ، وهو يحلم بالنصر والقضاء على الرسالة ، ومن وراء ذلك القضاء على هاشم وتهديم كيانها الشامخ .

وتهزمه بدر .. ويعود في أُحد خاسئاً ، وينكص بالذلة في في الأحزاب ، وقد كلفه حقده وبغيه أن يخسر من أشداء قومه وصناديدهم الكثير ، أمثال شيبة وعتبة والوليد وغيرهم .

ويدور التاريخ دورة أخرى .. وإذا بالنبي ﷺ على أبواب مكة يعلن بالفتح ، ويقف أبو سفيان ذاهلاً بعد أن أظهر إسلامه صاغراً ، بدفع وحماية من العباس بن عبد المطلب ،

يستعرض جيش الفتح وأعلامه ، وتحولُ عينه ، ولا يطيق إلا أن يفصح عن حقده وعنصريته ، فيقول للعبّاس وهو يغص بريقه .

« أصبح ملك ابن أخيك عظيماً .. » .

وينهره العباس على قولته هذه .. ولكن أبا سفيان لا ينظر من زاوية الرساله بل من زاوية الملك والسلطان ، لأنه لم يؤمن إلا مقهوراً صاغراً ، وفي اعتباره أن هذا انتصار لملك هاشم ، لا للرسالة التي يحملها النبي ﷺ للإنسانية ، والتي هي أبعد ما تكون عن الملك والتسلط ، بل هو رسول السماء على الأرض ، لينذر ويبشر ويعلن للملأ .

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » .

وينتصر الحق .. لا هاشم كما يتصور أبو سفيان .

لم يحتمل شيخ الأمويين هذه النهاية لمجده ، فهو لم يترك وسيلة للكيد للإسلام إلا واهتبلها ، إرضاءً لحقده ، فالإسلام في تصوره ملك لهاشم ، ولكنه خاب في كل ما سعى ، ولعل كلمته حين ولي عثمان .

« صارت إليك بعد تيم وعدي ، فأدرها كالكرة واجعل أوتادها بني أمية فإنما هو المُلك ولا أدري ما جنة ولا نار » .

إلى آخر معزوفته التي ذكرها له أرباب التاريخ ، لعل كلمته هذه تفصح عن نظرته الحاقدة للاسلام ، واعتباره ملكاً كان لهاشم ، وها هو لعبة في يد صبيان بني أميـــة ، كما في خطابه لحمزة حين وقف على قــبره بعد تولي عثمان لأمر الخلافة ، وهو دليل صريح على حقده وعنصريته ، وأمرُّ من هذا كلمته التي قالها بعد ما عميَ ودخل على عثمان وقال ها هنا أحد . فقالوا : لا فقال اللهم إجعل الأمر أمر جاهليه ، والملك ملك غاصبيه . واجعل أوتاد الأرض لبني أمية (١) .

وقد ورث معاوية هذه الخصلة الشائنة عن أبيه ، ويكفينافي إثبات ذلك ، ما روته لنا كتب التاريخ والسيّر عن حادثته مع المغيرة بن شعبة ، قال مطرف بن المغيرة بن شعبة :

« وفدت مع أبي المغيرة إلى معاوية،فكان أبي يأتيه ليتحدث عنده ثم ينصرف إليّ ، فيذكر معاوية ويذكر عقله ويعجب مما يرى منه ، إذ جاء ليلة فأمسك عن العشاء ، فرأيتـــه مغتماً ، فانتظرته ساعة وظننت أنــــه لشيء حدث فينا أو في عملنا ، فقلت له ما لي أراك مغتماً منذ الليلة :

قال : يا بني جئت من عند أخبث الناس .

قلت له : وما ذاك ؟

---

(١) ابن عساكر ج ٦ ص ٤٠٧ .

قال : قلت له وقد خلوت به :

« إنك قد بلغت مناك يا أمير المؤمنين ، فلو أظهرت عدلاً وبسطت خيراً ، فإنك قد كبرت ، ولو نظرت إلى إخوتك من بني هاشم فوصلت أرحامهم ، فوالله ما عندهم اليوم شيء تخافه ..

فقال لي :

« هيهات هيهات مَلك أخوتيم فعدل ، وفعل ما فعل ، فوالله ما عدا أن هلك فهلك ذكره ، إلا أن يقول قائل أبو بكر ، ثم ملك أخو عدي فاجتهد وشمّر عشر سنين ، فوالله ما عـــدا أن هلك فهلك ذكره ، إلا أن يقول قائل عمر ، ثم ملـك أخونا عثمان فملك رجل لم يكن أحد في مثـــل نسبه فعمل ما عمل وعُمل به ، فوالله ما عـــدا أن هلك فهلك ذكره وذكر ما فُعل به » .

« وإن أخا هاشم يُصرخ به في كل يوم خمس مرات ، أشهد أن محمداً رسول الله ، فأي عمل يبقى بعـــد هذا لا أم لك ، إلا دفناً دفنا [1] »

ولعلك أيها القارىء ، لاتعاني جهداً كبيراً حينما تقرأ هـــذه

---

(١) هامش صلح الحسن ص ٣٢٥ عن مروج الذهب ، وابن ابي الحديد.

الكلمات الجادة من ملك الشام ، لكي تتعرف على نزعته القبلية ، فهـو لا يرى نسباً أعلى من نسب أمية حين يعرض لذكر عثمان ، وهو لا يطيق ذكر أخا هاشم يصرخ به في كل يوم خمس مرات !

بهذه الروحية النزقة الحاقدة يريد ملك الشام أن يستولي على السلطة ، وبهذه العنصرية الشائنة التي لا مبرر لها إلا النزوع إلى الجاهلية الحمقاء ، يريد أن يمسك بزمام الحكم ، فهو يسعى جاهداً لتصفية الحساب مع محمد ﷺ بتصفية آله ، وإطفاء جذوتهم المشعة بالخير والهداية .

إنه أخيراً يريد تصفية حسابه مع الإسلام ،لأنه ثمرة هاشم.. نمت رشبت وترعرعت بأيديهم وفي ظلال هديهم .

لقد كان أقصى ما يصبو إليه معاوية أن يقف الحسن عليه السلام منه موقف المعاكس الغير المكترث به ، لتكون لمعاوية الحجـة في قتله الحسن لو قتل ، وليذهب دمه هدراً ، ولن يقتل الحسن إلا بعد أن يقتل أخوه الحسين وأهل بيته وأصحابـه وأنصاره دونه ، وبعدها يأتي دور تصفية الحساب الشامل مع الجنـاح الهاشمي ، وتنتصر الأموية لتلعب دورهـا في تشويه حقائق التاريخ ، واللعب بها ، كما يشاء حقد معاوية ، وخبث مروان وأبناء مروان ، ويعود الإسلام أموياً ، ولا يبقى لمحمـد ﷺ بعدها ذكر إلا من خلال ما تسمح به ترات أميـة وأحقادها .

كان معاوية بارعاً في تمثيل دوره في أيام المحنة ، فقد كانت

دعوته للصلح فتنة مرعبة كفتنة المصاحف في صفين ، يضمن فيها لنفسه الموقف المنتصر ،دون أن يكون لخصمه حرية الحركة أو الاختيار .

اذ ليس بعد هذا أمام الحسن عليه السلام إلا إختيار أحد امرين لا ثالث لها : فإما أن يصالح ، أو يضحي بنفسه وجميع أهل بيته وأنصاره .

وبالموارنة الصحيحة ، لا مجال إلا لاختيار الشق الأول هنا .

حيث أن اختيار التضحية معناه التفريط بنفسه وأهل بيته وأصحابه ، من دون أن يترتب أي أثر على ذلك ، إلا إنهاء هذه الذرية الطيبة للنبي الأعظم ، والثلة الصالحة من أعوانهم وأنصارهم .

فإن احتمال النصر على الجيش الشامي أمر بعيد في عالم الحساب العسكري ، مع ما عليه الجيش العراقي من التفكك والتمزق والانهيار .

واختيار الحرب والحال هذه لا تعدو نتائجه أحد أمرين :

١ ـ إما قتل الحسن مع خاصته .
٢ ـ وإما ابقاؤه حياً وأسره إلى معاوية .

فلو قتل الإمام الحسن وقتل معه أهل بيته وأنصاره ، فما هي النتائج التي ستترتب على ذلك ..؟

إنه طبعاً إنتصار الأموية ..

ولمعاوية حجته .. في تقدمه بطلب الصلح وجمع الكلمة وحقن الدماء ، ولكن الحسن أبى ذلك .

مع ما لمعاوية من سابق صحبه للنبي ، وكونه خال المؤمنين، وموضع ثقة عمر وعثمان ، وقد ولاه عمر ولم يحاسبه على شيء مما فعله ، وقال له قولته المعروفة (لا آمرك ولا انهاك) وهو ذو سابقة في السن ، ولن يخدش فيه قتاله لعلي ، فقد كانت حجته الطلب بدم عثمان الخليفة المقتول ظلماً، وها هو الآن يدعو للصلح بين المسلمين ، حقناً للدماء ، ودفعاً للفتنة ، ويؤكد حسن نيته أمام الملأ بأن يبذل للحسن ما يشاء ، ويُمضي له كل شرط يراه مناسباً .

ولو لم يقتل الحسن بل بقي حياً .. فما هو المصير الذي سيواجهه : إنه الأسر لا محالة ، ولا أقل من أنه سيفسح المجال لمعاوية لكي يملي عليه الشرط الذي يريد ، أو يترك الأمر له بلا شرط .

إذن لا مجال للتضحية واختيار طريقها .

إذ قتل الحسن سيؤدي إلى ذهاب دمه هدراً ، ولمعاوية من الأعوان ما يعطيه القدرة الكافية لتغطية جريمته بصورة يتمكن فيها من تضليل التاريخ ، ولا أقل من تشويه الصورة الواقعية للتضحية .

واسر الإمام فيما لوقدّر له البقاء حيا .. سيؤدي حتماً إلى تسلم معاوية الأمر بلا قيد أو شرط ، ولو أعطى الحسن شيئاً ، لكان ذلك منه امتناناً وحلماً يشكره عليه التاريخ ..

ولكن الإمام لم يكن بالذي يخفى عليه مكر معاوية وأحابيله ، وما يبغيه من الوقيعة فيه . وفي أهل بيته وأنصار أبيه ، أوليس هو معاوية الذي كتب لشبث بن ربعي وحجار بن أبجر وغيرهما يطلب من كل واحد منهم على حدة قتل الحسن ، ويعده بالجائزة السخية وهي ألف ألف درهم لو فعل ذلك ..

نعم لم يكن الإمام بالذي يخفى عليه شيء من ذلك ، فوقف لمعاوية بالمرصاد ، ليحبط له خططه ، ويمزق أحابيله ، وليفوّت عليه فرصة تنفيذ أطماعه الأموية العنصرية المرعبة ، وليقبل بالصلح ولا شيء غير الصلح .

ولتكن النتيجة أن الحسن عليه السلام لم يمتنع عن الشهادة بل الشهادة هي التي امتنعت عنه ..

وانتصر الإمام الحسن عليه السلام بثورته الصامتة ، حيث كانت معاهدة الصلح عملية كشف للمطامع الأموية ولأحقادها الضارية ، وتعرية صريحة لواقعها الشانيء البغيض .

إذ لم يكن معاوية قبل ذلك واضحاً في سلوكه العام ، بل كان يحاول أن يبرر كل موقف من مواقفه التي ربما يتسرب إليها الريب في نفوس الآخرين .

فحينما يقف عمر عند مسيره إلى بيت المقدس على إسراف معاوية وتبذيره في بناء القصور والدور ، والترف في الملبس والمآكل ، يبرر معاوية عمله هذا بأنه يريد بذلك إظهار عز الإسلام في مقابل جيرانه الروم ،الذين يهتمون بمثل هذه الأمور ،ويتصورون أن عز الملك به ، ويقول له عمر قولته المشهورة (لا آمرك ولا انهاك) .

ولكن لا أدري هل كان في دخول عمر بيت المقدس على الحالة التي كان فيها من اللباس البسيط والمركب المتواضع ، هل كان ذلك توهين للإسلام أمام البطارقة وزعماء النصارى ؟

أم هل كان في دخول رسول كسرى على عمر وهو نائم يفترش التراب ولا جند يحميه ، ولا حرس يرد عنه ، فقال له قولته المعروفة (عدلت فأمنت فنمت) هل كان في ذلك توهين للإسلام ؟

ثم نرى معاوية يبرر موقفه العدائي من الإمام علي عليه السلام وحربه معه ، بأنه ولي دم عثمان ، وهو يطالب بقتلته ، متهماً الإمام بأنه المحرض عليه ، والحامي عن قتلته .

وهكذا تراه يبرر كل عمل مشبوه يقوم به ، بما يكون لهفيه عذر عند العامة والرعاع من الناس .

ولم يكن يخفي على الإمام الحسن واقع معاوية ودخائله ، فأراد كشفه للناس على حقيقته بعد ان تتمزق عنه الحجب ،

ويستسلم لمطامعه العنصرية ، بعد أن يُخلى له الدرب ينطلق فيه حراً على طبيعته .

دخل معاوية الكوفة ، ودخل معه الحسن ، بعد أن اتفق الطرفان على أن يكون الأجتماع هناك ، فماذا كان موقف معاوية .. ؟

يقول المؤرخون .. أن معاوية حين بلغ النخيلة خطب خطبة مطولة قال فيها مخاطباً أهل الكوفة :

« والله إني ما قاتلتكم لتصلوا ولتصوموا ولتحجوا ولا لتزكوا ، إنكم لتفعلون ذلك ولكني قاتلتكم لأتأمر عليكم ، وقد أعطاني الله ذلك وأنتم كارهون ألا وإني كنت منيت الحسن وأعطيته أشياء وجميعها تحت قدمي لا أفي بشيء منها ..[1] »

وفي رواية المدائني خطب معاوية أهل الكوفة فقال :

« أتراني قاتلتكم على الصلاة والزكاة والحج ، وقد علمت أنكم تصلون وتزكون وتحجون ، ولكنني قاتلتكم لأتأمـــر عليكم وعلى رقابكم ، وقد آتاني الله ذلك وأنتم كارهون .

إن كل مال أو دم أصيب في هذه الفتنة لمطلول ، وكل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين ..[2] »

(١-٢) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢٦ ويقرأ أيضاً ابن ابي الحديـــد وغيره .

بهذه الروح وبهذه النفسية دخل معاوية الكوفة ، فهو لم يحارب أهل الكوفة لكي يقيم فيهم حكم الكتاب والسنة ، ويصلح من شؤونهم ما فسد ، بل ليتأمر عليهم ، ويوسّع دائرة ملكه بالإستيلاء عليهم ، والتسلط على رقابهم .

ويحسب معاوية أنه انتصر باستيلائه على الكوفة ، ويأخذه المجب بدهائه ومكره ، فيذهب بعيداً بعيداً ليضرب بمواثيقه وعهوده المغلظة التي اعطاها للإمام كي يسلمه الأمر ، ويحقن الدماء ، ليضرب بجميع ذلك تحت قدميه ، مستخفاً بكل القيم الإنسانية والأخلاقية .

ولكن أين هي انسانيته ؟ وأين هي أخلاقيته ؟ ولعل كل ذلك في نظر معاوية ألفاظ جوفاء ، وتعابير منسقة ، يركن إليها الضعيف ليتماسك بها موقفه المهزوز ..

وهكذا كان موقف ملك الشام ..

ونحن حينما نعبّر بملك الشام ، نعني بذلك ما نقول، إذ لم يكن قتال معاوية وحربه وحشده الجيوش للإستيلاء على حكم الكوفة إلا لأن المعركة في نظره معركة أمية وهاشم ، إنها معركة ملك ، وليست معركة على تقويم اعوجاج حكم ، أو إقامة سنة ، وهذا ما صرح به معاوية نفسه في الفقرات السابقة من خطابه .

مصير الشروط

« إن كل مال أو دم أُصيب في هـذه الفتنة لمطلول ، وكل شرط شرطتـــه فتحت قدميّ هاتين »

جدير بنا بعد هذا الإستعراض الطويل ، أن نقف مع التاريخ وقفة فاحصة لنرى ما آل إليه أمر الشروط التي أخذها الحسن على معاوية .

كان الشرط الأول .. هو أن يسلم الحسن الأمر لمعاوية على أن يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وسيرة الخلفاء الصالحين .

وهذا الشرط ينحل إلى شقين .

تسليم الحسن الأمر لمعاوية .

عمل معاوية بالكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الصالحين .

اما الشق الأول فقد وقف الإمام الحسن عند عهده ، رغم الضغوط الكثيرة من أصحابه ومخلصيه ، والترغيبات الملحة من قبل جموع أهل الكوفة الذين ذاقوا مرارة التسلط الأموي وحكمهم المتعسف الظلوم .

فلم تكن هذه الضغوط والترغيبات لتغير من موقف الإمام ، بل بقي صامداً أمام عهده لا يفسح المجال لأحدٍ كي يحمله على نقض ما أبرم على نفسه .

ولقد كان الإمام الحسن في حِلٍ من شرطه لو أراد ، لأن التسليم كان مشروطاً ، ولم يفِ معاوية بأي واحد من الشروط التي أخذت عليه ، فهو في فسحة من اتخاذ قرار النقض لو شاء ، ولكن يريد أن يكشف للناس الواقع البعيد لملك الشام وزمرته

المتسلطة ، لكي لا يبقى عذر لمعتذر .

على أن الإمام لم يكن على ثقة تامة من اجتماع كلمة الكوفة بعدما رأى منهم من الخذلان والتفكك ، والتلون في الرأي والمسلك ، ولعله أدرك ببعد نظره ..أن العاقبة ستكون اقسى مما لاقاه في مسيرته الأولى ، خصوصاً بعد أن ثبت لبني أمية قدم في الكوفة ، ولا بد أنهم قد اشتروا من الكثيرين انفسهم من زعماء وقادة ورؤساء .

وجاءه زعماء شيعته ، ليحملوه على الخروج بعدما نقض معاوية شروطه ، عارضين عليه خلع عامل الأمويين على الكوفة وضمنوا له السلاح والكراع لأعادة الكرة على الشام .

ولكن الإمام لم يستثره ذلك الحماس المتوثب من أنصاره وشيعته ، وكأنه وهو يستمع إليهم وهم يستنفرونه للحرب ، يقرأ صفحات المستقبل ، حين تدعو الكوفة اخاه الحسين بمئات من الكتب المثيرة ، فيخرج إليهم ثم لا يجد منهم ناصراً إلا فئة قليلة تنضم اليه ، لا تعدو عدد الأصابع أو تزيد بقليل ، وقائل يقول له وهو في طريقه إلى الكوفة :

« تركتُ الكوفة ، وقلوبهم معك وسيوفهم عليك »

نعم لم تستنفره تلك الخطب ، وإن كان أصحابها من أشد المخلصين له ، أمثال سليمان بن صرد ، وهو إذ ذاك سيد العراق ورئيسهم ، على ما عبر عنه إبن قتيبة ، فقد قال له فيما قال .

« وزعم ـ يعني معاوية ـ على رؤوس الناس ما قد سمعت : إني كنت شرطت لقوم شروطاً ، ووعدتهم عدات ، ومنيتهم اماني ، فإن كل ما هنالك تحت قدميّ هاتين ، والله ما عنى بذلك الا نقض ما بينك وبينه ، فأعد الحرب خدعة ، وأأذن لي أشخص إلى الكوفة ، فأخرج عاملها منها وأظهر فيها خلعه وأنبذ له على سواء ، إن الله لا يهدي كيد الخائنين .. »

وسكت .. وتكلم بعده أصحابه مؤيدين مقالته ..[1]

وجاءه آخرون ، أمثال حجر بن عدي الكندي، والمسيب بن نجبة ، ممن تنقاد لهم الكلمة ، ولهم المركز الأقوى وغيرهم ، ولكنه عليه السلام ثبت في موقفه الصامد ، مجيباً لهم بما ذكره ابن قتيبة :

« ليكن كل رجل منكم حلساً من أحلاس بيته ما دام معاوية حياً ، وإن يهلك معاوية ونحن وأنتم أحياء ، سألنا الله العزيمة على رشدنا ، والمعونة على امرنا ، وأن لا يكلنا إلى أنفسنا : فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون [2] »

---

(١) ابن قتيبة ج ١ ص ١٥١ .
(٢) نفس المصدر ص ١٥٢ .

وأما الشق الثـاني من الشرط .. وهو أن يعمـــل معاوية بالكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الصالحين، فيكفينا فيه ما نقلناه من خطاب معاوية في النخيلة بعد الصلح ، وما سنقرأ عليك .. من أفعاله وبدعه التي لم يتورع عن ارتكابها بوازع دينيأو خلقي.

وأما الشرط الثاني : وهو جعل الأمر من بعـده للحسن ثم للحسين أو أن لا يعهد إلى أحد من بعده .

فقد أجمع المؤرخون بأن معاوية لم يف بشرطه هذا ، بـل نقضه بجعله الولاية لابنه يزيـد من بعده ، متخطياً شرطه الذي أجمع عليه المؤرخون ، وهو بأن لا يعهد لأحد من بعده .. غير الإمام الحسن .

وقد كانت بيعته ليزيد من أشد ما ابتلى به الإسلام من المحن، ولعلها الدليل الواضح على لعب معاوية وهزئه بمنصب الخلافة ، واعتباره ملكاً لبني أمية ، فينزوا عليـه صبيانهم وأدعيائهم ، من غير أن يكون لأحد حق الاعتراض أو النقض .

ومن هو يزيد .. شارب الخمور ، وخدن القرود والفهود ، حتى يتولى الخلافة ، ويتسلط على رقاب المسلمين ؟

نعم لقد نقض معاوية شرطه ، وحاول البيعة لابنه يزيد في حياة الإمام الحسن ، كما يظهر لنـا من خطاب الأحنف بن قيس على رواية ابن قتيبة ، حين رتب معاوية مجلساً دعـــا له بعض خلصائه وأنصاره والمتزلفين إليــه، وطلب منهم أن يتكلموا في

المجلس ، ويطلبوا عقد البيعة ليزيد ، فقالوا وتزلفوا ما شاء لهم الهوى والضلال ، ولكن الأحنف بن قيس ذلك الإنسان الذي حمل الحق بين كتفيه ولم ترهبه سطوة معاوية وجبروته ، بل اندفع بقلب مؤمن صبور ونفس مطمئنة لحقها ، قائلاً :

« أصلح الله الأمير.. إن الناس قد أمسوا في منكر زمان مؤتنف ، وقد حلبتَ الدهور وجربت الأمور ، فاعرف من تسند إليه الأمر بعدك ، ثم اعصي من يأمرك ، ولا يغررك من يشير عليك ، ولا ينظر إليك ، مع أن أهل الحجاز وأهل العراق لا يرضون بهذا ما دام الحسن حياً .

وقد علمت يا معاوية .. انك لم تفتح العراق عنوة ، ولم تظهر عليه مقصاً ، ولكنك أعطيت الحسن بن علي من عهود الله ما قد علمت ، ليكون له الأمر من بعدك ، فإن تف فأنت أهل الوفاء ، وإن تعذر تظلم ، والله إن وراء الحسن خيولاً جياداً ، وأذرعاً شداداً ، وسيوفا حداداً ، وإن تدن له شبر غدر تجد وراءه باعاً من نصر ، وأنت تعلم مَن أهل العراق .. ما أحبوك منذ أبغضوك ، ولا أبغضوا علياً وحسناً منذ أحبوهما ، وما نزل عليهم في ذلك غيّر من السماء ، وإن السيوف التي شهروها عليك مع علي يوم صفين لعلى عواتقهم ، والقلوب التي

أبغضوك بها لبين جوانحهم .. [1] »

وهكذا : رأى معاوية.. أن العهد لن يتم لولده يزيد ما دام الحسن حيا ، فإن ذلك سيخلق له معارضه قوية ، قد تؤدي إلى قيام ثورات وعصيان .

قال أبو الفرج : وأراد معاوية البيعة لإبنه يزيد ، فلم يكن شيء أثقل عليه من أمر الحسن وسعد بن أبي وقاص ، فدس إليهما سماً فماتا فيه [2] »

وكان سمه للإمام بواسطة زوجته جعدة بنت الأشعث ، بعد أن أغراها معاوية بالمال ، وأن يزوجها من ابنه يزيد إن هي فعلت ما طلبه منها ولكنه على عادته لم يف لها إلا بالمال[3]..

وبموت الإمام الحسن عليه السلام .. تحرك معاوية لينفذ خطته الأموية ، بجعل الخلافة ملكاً لبني أبيه ، وسعى سعيه لتدبير الأمر وإحكامه لولده يزيد .

يقول ابن الأثير : وكان ابتداء ذلك وأوله من المغيرة بن شعبه ، فإن معاوية أراد أن يعزله عن الكوفة ويستعمل عوضه

---

(١) ابن قتيبة ج ١ ص ١٥٦-١٥٨ .

(٢) مقاتل الطالبين ص ٧٣ نقله في شرح النهج لأبن ابي الحديد ص ٤٩ ج ١٦ .

(٣) نفس المصدر

سعيد بن العاص ، فبلغه ذلـك ، فقال : الرأي أن أشخص إلى معاوية فاستعفيه ، ليظهر للنـــاس كراهتي للولاية ، فسار إلى معاوية وقال لأصحابه حين وصل إليه : إن لم أكسبكم الآن ولاية وإمارة لا أفعل ذلك أبـداً .. ومضى حتى دخل على يزيـــد وقال له :

« إنه ذهب أعيـان أصحاب النبي ، وكبراء قريش وذووا أسنانهم ، وإنما بقي أبنـــائهم ، وأنت من أفضلهم وأحسنهم رأياً ، وأعلمهم بالسنة والسياسة ولا أدري ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة »

قال : أو ترى ذلك يتم ؟

قال : نعم !

فدخل على أبيه وأخبره بما قال المغيرة فأحضر المغيرة .

وقال له : ما يقول يزيد ؟

فقال :

يا أمير المؤمنين.. قد رأيت ما كان من سفك الدماء والإختلاف بعد عثمان ، وفي يزيد خلف فاعقد له ، فإن حدث بك حدث . كان كهفاً للنـاس وخلفاً منك ، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة » .

قال : ومن لي بهذا ؟

قال : أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد هل البصرة ، أ وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك .

قال : فارجع إلى عملك ، وتحدث مع من تثق إليه في ذلك وترى وترى .

فودعه ورجع إلى أصحابه .

فقالوا : مه ..؟

قال : لقد وضعت رجل معاوية في غرز بعيد الغاية على أمة محمد ، وفتقت عليهم فتقاً لا يرتق أبداً .. (١) »

ولم يأت المغيرة بشيء جديد كما يتصور ، بل هـذا أمر نال من تفكير معاوية الكثير الكثير ، وجاءت مبادرة المغيرة الصحابي الغيور على الإسلام ! باعثاً قوياً للتحرك السريع من قبل معاوية لأخذ البيعة لولده يزيد ، فلم تمض أيام قليلة ، حتى بعث معاوية إلى عماله بأخـذ البيعة له من بعده ، ويعجز مروان عن أخذ البيعة من أهل المدينة التي هي الثقل الأكبر للمسلمين ، ففيها الأنصار وأبناء المهاجرين ورؤساء المسلمين ، فيعزله، ويولي سعيد بن العاص ، فأظهر الغلظة ، وأخـذهم بالعزم والشدة ، وسطا بكل من أبطأ عن البيعة ليزيد ، فأبطأ الناس عنها إلا اليسير ، لا سيما بني هاشم فإنه لم يجبه منهم أحد .

---

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ١٩٨ .

أما مروان فذهب إلى الشام مغاضباً ، وواجـــه معاويـة بكلام طويل قال فيه :

« وأقم الأمر يا ابن أبي سفيان ، واهدأ من تأميرك الصبيان ، واعلم أن لــك في قومك نظراء ، وأنهم على مناوأتك وزراء .. »

ثم سكت : لأنه رزقه ألف دينار في كل هلال [1] ..

وقد جرت بين الإمام الحسين عليه السلام وابن عبـاس ومعاوية رسائل وخطوب ، قد يطول البحث علينا في اثباتها ، وكل منها يذكـّره العهد، ويذكره الله في أخذ البيعة لمثل ولده يزيد، الذي لم يعرف في حياته إلا اللهو واللعب .

وقد كانا من أشد الناس على معاوية ، ولكن معاوية حاول أن يضلل الناس بأنهما وغيرهما من الوجوه الممتنعين عن البيعة قد بايعوا ، ولنقرأ معاً ما ذكره التاريخ في هذا الصدد .

قال ابن قتيبة : بعد ذكره ورود معاوية إلى المدينة ..

« ثم جلس معاوية صبيحة اليوم الثاني ، وأجلس كـُتابــه بحيث يسمعون ما يأمر به ، وأمر حاجبه بأن لا يأذن لأحد من الناس وإن قرب ، ثم أرسل إلى الحسين بن علي وعبـــد الله بن عباس ، فسبق ابن عباس فأجلسه عن يساره ، وسأله عن حال

(١) ابن قتيبة ج ١ ص ٦٣ .

بني الحسن وأسنانهم فأخبره .

ثم خطب معاوية خطبة ، أثنى بها على الله ورسوله ، وذكر الشيخين وعثمان ، ثم ذكر أمر يزيد وأنه يحاول ببيعته سد خلل الرعية ، وذكر علمه بالقرآن والسنة ، واتصافه بالحلم ، وأنه يفوقهما سياسة ومناظرة ، وإن كانا أكبر منه سناً وأفضل قرابة ، واستشهد بتولية النبي ﷺ عمرو بن العاص في غزوة ذات السلاسل على أبي بكر وعمر وأكابر الصحابة ، ثم استجابهما عما ذكر .. »

فتهيأ ابن عباس للجواب ..

فقال له الحسين : على رسلك ، فأنا المراد ونصيبي في التهمة أوفر ، وقام الحسين فحمد الله تعالى ، وصلى على الرسول ﷺ وقال :

« أما بعد : يا معاوية فلن يؤدي القائل وإن أطنب في صفة الرسول ﷺ من جميع جزءاً ، وقد فهمت ما لبّست به الخلف بعد رسول الله ، من إيجاز الصفة ، والتنكب عن استبلاغ البيعة ، وهيهات هيهات يا معاوية ، فضح الصبح فحمة الدجى ، وبهرت الشمس أنوار السُرج ، ولقد فضّلتَ حتى أفرطتَ ، واستأثرتَ حتى أجحفت ، ومنعتَ حتى بخلتَ ، وجرتَ حتى جاوزتَ ، ما

بذلتَ لذي حق من إسم حقــه من نصيب ، حتى أخذ الشيطان حظه الأوفر ونصيبه الأكمل .

وفهمت ما ذكرته عن يزيد ، عن اكتماله وسياسته لأمة محمد ، تريد أن توهم الناس في يزيـــد كأنك تصف محجوباً ، أو تنعت غائباً ، أو تخبر عما كأنك احتويته بعلم خاص .

وقد دل يزيد من نفسه على موقع رأيه ، فخذ ليزيد فيما أخذ به ، من استقرائه الكلاب المهارشة عنـــد التحارش ، والحمام السبَّق لأترابهن ، والقينات ذوات المعازف وضروب الملاهي ، تجـــده ناصراً . ودع عنك ما تحاول ، فما أغناك أن تلقى الله بوزر هذا الخلف بأكثر مما أنت لاقيه ، فوالله ما برحت تقدح باطلاً في جور ، وحنقاً في ظلم ، حتى مُلئت الأسقية وما بينك وبين الموت إلا غمضة ، فتقدم على عمــل محفوظ في يوم مشهود ، ولات حين مناص .

« وذكرت قيادة الرجل القوم في عهد رسول الله ، وما صار ذلك لعمرو يومئذ ، حتى أنف القوم امرته ، وكرهوا تقديمه ، وعدوا عليه أفعاله ، فقال رسول الله : لا جرم معشر المهاجرين ، لا يعمل عليكم بعد اليوم ، فكيف تحتج بالمنسوخ من فعــل الرسول في أوكد الأحوال وأولاها بالمجتمع عليه من الصواب ؟

أم كيف ضاهيت بصاحبٍ تابعاً، وحولك من يُؤمن في صحبته ، ويُعتمد في دينه وقرابته ؟ تتخطاهم إلى مسرف مفتون ، تريد أن تلبّس الناس شبهة يسعد بها الباقي في دنياه ، وتشقى بها في آخرتك ، إن هذا لهو الخسران المبين واستغفر الله لي ولكم .. »

قال : فنظر معاوية إلى ابن عباس فقال :

« ما هذا يا ابن عباس ؟ ولمَا عندك أدهى وأمرّ »

فقال ابن عباس :

« لعمرو الله .. انه ذرية الرسول ، واحد أصحاب الكساء ومن البيت المطهر ، فالهُ عما تريد ، فإن لك في الناس مقنعاً ، حتى يحكم الله بأمره وهو خير الحاكمين .. » [1]

ثم خرج معاوية إلى مكة..وسبقه الحسين بن علي ، وعبدالله بن الزبير وعبد الرحمن بن أبي بكر ، وابن عمر إليها .

ولما كان آخر أيامه بمكة أحضر هؤلاء وقال لهم :

« إني أحببت أن أتقدم إليكم أنه قد اعـــذر من أنذر ، إني كنت أخطب فيـــكم فيقوم إليّ القائم منكم فيكذبني على رؤوس الناس ، فأحمل ذلـك

---

(١) ابن قتيبه ج ١ ص ١٦٨ .

وأصفح ، وإني قائم بمقالة ، فأقسم بالله .. لئن رد عليّ أحدكم كلمة في مقامي هذا ، لا ترجع إليه كلمة غيرها . حتى يسبقها السيف إلى رأسه ، فلا يبقين رجل إلا على نفسه .. »

ثم دعا صاحب حرسه بحضرتهم فقال له :

« أقم على رأس كل رجل من هؤلاء رجلين ، ومع كل واحد سيف ، فإن ذهب رجل منهم يرد عليّ كلمة بتصديق أو تكذيب ، فليضرباه بسيفيهما .. »

ثم خرج وخرجوا معه حتى أتى المنبر ، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

« إن هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم ، لا يبتز أمر دونهم ، ولا يقضى إلا عن مشورتهم ، وإنهم قد رضوا وبايعوا يزيد ، فبايعوا على اسم الله .. »

فبايع الناس .. » (١)

وهكذا .. وطد معاوية أمر الخلافة لولده يزيد ، بما يملكه من دهاء وخدعة ، وكانت آخر أحبولة صنعها ، هي ما سمعته في الرواية التي تنم عن خبث ومكر وخداع .

---

(١) إبن الأثير ج ٣ ص ٢٥٢ .

وتمت البيعة تحت ضغط السيوف والحراب ، والتهديد والوعيد ، بعد أن تعهد للإمام الحسن ، بأن لا يوليها لأحد من بعده إلا له ، ولأخيه الحسين من بعده كما نطقت بذلك كثير من كتب التاريخ ..

أما الشرط الثالث : وهو رفع السب عن الإمام أبي الحسن عليه السلام ، مطلقاً أو في حضور الإمام الحسن خاصة .

فقد عزّ على معاوية الوفاء به ، لأن سب علي يُمثل لدى معاوية الأساس القوي ، الذي يعتمد عليه في ابعاد العامة عن بني هاشم ، وخصوصاً العلويين منهم ، الذين يُمثلون القمة في كيانهم ، باعتبارهم سلالة النبي وابناء بضعته ، وهم في نفس الوقت .. يُمثلون مركز القوة ـ في مقابل الحكومات القائمة ـ في أوساط المسلمين ومنطلق الثورة .

ولذا نرى معاوية ، يركز بعناد وقوة على لزوم اتباع طريقته في السب ، في وصاياه وكتبه لعماله ، فعن المدائني قال في كتاب الأحداث :

« كتب معاوية نسخة واحدة بعد عام الجماعة ، أن برئت الذمة ممن روى شيئاً من فضل أبي تراب وأهل بيته ، فقامت الخطباء في كل كورة وعلى كل منبر ، يلعنون علياً ويبرأون منه ، ويقعون فيه وفي أهل بيته ، وكان أشد الناس بلاءاً حينئذٍ أهل

الكوفة ، لكثرة من بها من شيعة علي عليه السلام » [1]

وعن ابن الأثير :

أن معاوية دعا المغيرة بن شعبة ، وهو يريد أن يستعمله على الكوفة بعد الصلح ، فقال له في كلام :

« .. وقد أردت ايصاءك بأشياء كثيرة ، أنا تاركها اعتماداً على بصرك ، ولست تاركاً ايصاءك بخصلة واحدة ، لا تترك شتم علي وذمّة .. » [2]

وقيل لمروان : ما لكم تسبونه على المنابر ؟

فقال : لا يستقيم لنا أمر إلا بذلك .. وكان لا يدع سب علي على المنبر كل جمعة .

وفي النصائح الكافية ، عن ابن حجر المالكي قال : وكان الحسن يعلم ذلك ، ولا يدخل المسجد إلا عند الإقامة ، فلم يرض بذلك مروان ، حتى أرسل إلى الحسن في بيته بالسب البليغ لأبيه وله .. [3] »

ويحدثنا التاريخ عن موقف لمعاوية في الكوفة ، وبعد لم يجف الحبر على ورقة المعاهدة .

---

(١) ابن ابي الحديد ج ٣ ص ١٥ .
(٢) ابن الأثير ج ٣ ص ١٨٧ .
(٣) ابن ابي الحديد شرح النهج ج ١٦ س ٤٦/ أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢٦ .

قال في الأعيان ، نقلاً عن أبي الفرج في المقاتل :

لما بويع معاوية خطب ، فذكر علياً عليه السلام فنال منه ، ونال من الحسن ، فقام الحسين ليرد عليه ، فأخذ الحسن بيده فأجلسه ، ثم قام فقال :

« أيها الذاكر علياً ، أنا الحسن وأبي علي ، وأنت معاوية وأبوك صخر ، وأمي فاطمة وأمك هند ، وجدي رسول الله وجدك حرب ، وجدتي خديجة وجدتك قتيلة ..

فلعن الله أخملنا ذكراً ، والأمنا حسباً ، وشرنا قديماً ، وأقدمنا كفراً ونفاقاً .

فقال طوائف من أهل المسجد آمين

قال يحيى بن معين : ونحن نقول آمين .

قال أبو عبيدة : ونحن أيضاً نقول آمين

قال أبو الفرج : وأنا أقول آمين [1]

بل الأجيال كلها تقول آمين ..

وأما الشرط الرابع : فقد قيل أن أهل البصرة حالوا بين الحسن وبين خراج أيجر .

وقالوا : فيئنا ..

---

(١) نفس المصدر السابق .

وكان منهم كما يقول ابن الأثير ، بأمر من معاوية لهم [1] ..

وأما الشرط الخامس : فسأعرض له بالتفصيل في كتاب مستقل إن حالفني التوفيق على ذلك ، ولكني سأنقل هنا صورة مجملة ، عما ارتكبه معاوية في حق شيعة علي وأنصاره ، من تشريد وقتل ونفي ، مما أثار حفيظة المسلمين عليه ، على اختلاف ميولهم وأحزابهم ، وحتى أعداء علي ومن ألب عليه وقاتله ، وجمّع عليه الجيوش ، كعائشة أم المؤمنين وغيرها .

وأترك الحديث هنا لسليم بن قيس ، لينقل لنا فيما كتب صورة كاملة عن تلك المأساة الدامية ، التي حلت بالشيعة في عهد معاوية ، وقد كان شاهد العيان الذي روّع بآلامها وغصصها قال :

« قدم معاوية حاجاً في خلافته ، بعدما قُتل أمير المؤمنين، وصالح الحسن ، واستقبله أهل المدينة ، وفيهم قيس بن سعد بن عبادة ، وكان سيد الأنصار وابن سيدهم ، فدار بينهما الحديث حتى انتهيا إلى الخلافة ، فقال قيس :

« ولعمري ما لأحد من الأنصار ولقريش، ولا لأحد من العرب والعجم في الخلافة حق مع علي وولده من بعده ، فغضب معاوية ، ونادى مناديه وكتب بذلك نسخة واحدة إلى عماله : ألا برئت الذمة ممن

(١) ابن الأثير ج ٣ ص ١٦٣ .

روى حديثاً في مناقب علي وأهل بيته » .

وقامت الخطباء في كل كورة ومكان على المنابر ، بلعن علي بن أبي طالب والبراءة منه ، والوقيعة في أهل بيته ، واللعنة لهم بما ليس فيهم » .

« ثم إن معاوية مر بحلقة من قريش ، فلما رأوه قاموا إليه ، غير عبد الله بن عباس .

فقال له : يابن عباس ما منعك من القيام كما قام أصحابك ، إلا لموجدة عليّ بقتالي إياكم يوم صفين .

يا ابن عباس إن ابن عمي عثمان قتل مظلوماً .

قال ابن عباس : فعمر قتل مظلوماً ، فسلم الأمر إلى ولده ، وهذا ابنه .

قال : إن عمر قتله مشرك .

قال ابن عباس : فمن قتل عثمان ؟

قال : قتله المسلمون .

قال : فذلك أدحض لحجتك ، إن كان المسلمون قتلوه وخذلوه فليس إلا بحق .

قال : فإنا كتبنا في الآفاق ننهى عن ذكر مناقب علي وأهل بيته ، فكف لسانك يا ابن عباس .

قال : فتنهانا عن قراءة القرآن ..؟

قال : لا .

قال : فتنهانا عن تأويله ؟

قال : نعم !

قال : فنقرأه ولا نسأل عما عنى الله به .

قال : نعم !

قال : فأيهما أوجب علينا ، قراءته أو العمل به ..؟

قال : العمل به ..

قال : فكيف نعمل به .. حتى نعلم ما عنى الله بما أنزل علينا ..

قال : سل عن ذلك من يتأوله على غير ما تتأوله أنت وأهل بيتك .

قال : إنما انزل القرآن على أهل بيتي ، فأسأل عنه آل أبي سفيان وآل أبي معيط ؟

قال : فاقرأوا القرآن ولا ترووا شيئاً مما انزل الله فيكم ، ومما قاله رسول الله ، وأرووا ما سوى ذلك !

قال ابن عباس : قال الله تعالى « يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون » .

قال معاوية : يا ابن عباس إكفني نفسك ، وكف عني

لسانك ، وإن كنت لا بد فاعلاً فليكن سراً ، ولا تسمعه أحداً علانية .

ثم رجع إلى منزله ..

واشتد البلاء بالأمصار كلها على شيعة علي وأهل بيته ، وكان أشد الناس بلية أهل الكوفة ، لكثرة من فيها من الشيعة ، واستعمل عليها زياداً وجمع له العراقين ، وكان يتتبع الشيعة وهو بهم عالم ، لأنه كان منهم ، فقتلهم تحت كل كوكب ، وتحت كل حجر ومدر ، وأحلأهم وأخافهم ، وقطع الأيدي والأرجل منهم ، وصلبهم على جذوع النخل ، وسمّل أعينهم ، وطردهم وشردهم .

وكتب معاوية إلى قضاته وولاته في الأمصار ، أن لا يجيزوا لأحد من شيعة علي ، الذين يروون فضله ويتحدثون بمناقبه شهادة .

وكتب إلى عماله .. انظروا مَن قِبلكم من شيعة عثمان ، الذين يروون فضله ، ويتحدثون بمناقبه ، فأكرموهم وشرفوهم ، واكتبوا إلي بما يروي كل واحد منهم فيه ، باسمه واسم أبيه ، ويبعث إليه بالصلات والكسا ، وأكثر القطائع للعرب والموالي ، فكثروا وتنافسوا في المنازل والضياع ، واتسعت عليهم الدنيا ..

ثم كتب إلى عماله : إن الحديث قد كثر في عثمان ، فإذا جاءكم كتابي هذا فادعوهم إلى الرواية في أبي بكر وعمر ، فقرأ

كل قاضٍ وأمير كتابه على الناس ، وأخذ النـاس في الروايات فيهم وفي مناقبهم ..

ثم كتب نسخة جمع فيها جميع ما رُوي فيهم من المناقب ، وأنفذها إلى عماله ، وأمرهم بقراءتها على المنابر ، وفي كل كورة وفي كل مسجد ، وأمرهم أن ينفذوا إلى معلمي الكتاتيب أن يعلموها صبيانهم ، حتى يرووها ويتعلموها كما يتعلمون القرآن ، حتى علموها بناتهم ونساءهم وخدمهم .

ثم كتب إلى عماله نسخة واحدة :

« انظروا من قامت عليه البينة أنه يحب علياً وأهل بيته فامحوه من الديوان »

ثم كتب كتاباً آخر :

« من اتهمتموه ولم تقم عليه بينة فاقتلوه »

فقتلوهم على التهم والظن والشبه ، تحت كل كوكب ، حتى لقد كان الرجل يسقط في الكلمة فتضرب عنقه ..»

وجعل الأمر لا يزداد إلا شدة ، وكثر عددهم ، وأظهروا أحاديثهم الكاذبة ، فنشأ الناس على ذلك ، لا يتعلمون إلا منهم ، وكان أعظم الناس في ذلـك القراء المراؤون المتصنعون ، الذين يُظهرون الحزن والخشوع والنسك ، ويكذبون ليحظوا عنـــد ولاتهم ، ويصيبوا بذلك الأمـــوال والقطائع والمنازل ، حتى

صارت أحـــاديثهم في أيدي من يحسب نها حق ، فرووهاأ وعلموها ، وصارت في أيدي المتدينين الذين لا يستحلون الكذب فقبلوها ، وهم يرون أنها حق ، ولو علموا أنها باطل لم يرووها ، ولم يتدينوا بها .

فلما مات الحسن بن علي عليه السلام ، لم تزل الفتنة والبلاء يعظمان ويشتدان ..[1]» وزاد ابن ابي الحديد في شرحه :

وتفاقم الأمر بعد قتل الحسين عليه السلام ، وولي عبد الملك بن مروان ، فاشتد الأمر على الشيعة ، وولى عليهم الحجاج بن يوسف الثقفي ، فتقرب إليه أهل النسك والصلاح والدين ببغض علي وموالاة أعدائه ، وموالاة من يدعي من الناس إنهم أيضاً اعداؤه ، فأكثروا في الرواية في فضلهم وسوابقهم ومناقبهم ، واكثروا من الغض من علي عليه السلام وعيبه ، والطعن فيه ، والشنآن له ، حتى أن إنساناً وقف للحجاج ـ ويقال إنه جد الاصمعي عبد الملك بن قريب ـ فصاح به : أيها الأمير إن أهلي عقوني فسموني علياً ، وإني فقير بائس ، وأنا إلى صلة الأمير محتاج ، فتضاحك الحجاج وقال :
للطف ما توسلت به ، قد وليتك موضع كذا »[2]

(١) وروى مثل ذلك كله أبو الحسن المدائني فيما رواه ابن ابي الحديد
(٢) ابن ابي الحديد ج ١١ ص ٤٤ .

هذه صورة مجملة عن مأساة التشيع ، يرويها لنا سليم بن قيس والمدائني ، وعن مأساة التاريخ ، وكيف لعب به معاوية ، فدفع الناس باغراءاتـــه وعطاياه ، لأن يختلقوا على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة ما لم يقولوا ، ويصنفوا من الأحداث والوقائع مـا لم تسمع به اذن ، ولم تره عين ، طالبين بذلك رضا المخلوق بسخط الخالق ، فللتاريخ معهم حساب ، والله من وراء ذلك شديـــد العقاب ..

وهل ينسى التاريخ قتـل حجر وأصحاب حجر ، في مرج عذراء بضواحي دمشق ؟ وأي ذنب لحجر وأصحابـه ، سوى أنهم من صحابة علي وأهـــل بيتـه ، والذابين عنهم والراوين لمناقبهم ؟

وهل ينسى التاريخ قتله لعمرو بن الحق الخزاعي وتمثيله به، وحبسه لزوجته آمنة بنت الشريـــد سنتين في سجن دمشق ، وترويعها وإرهابها بشتى أنواع الترويع والإرهاب [١] .

وهل ينسى التـاريخ الكثير الكثير ، من جرائم ملك الشام وأفاعيله في حق شيعة علي وأنصاره ..؟

وذنبهم الوحيد أنهم أحبوا علياً ..

* * *

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢٦ .

إلى هنا ثبت لدينا بما لا يدع مجالاً للشك ، أن الإمام الحسن عليه السلام لم يصالح معاوية لرغبة في نفسه ، واختيار منه سبق أن صمم عليه ، بل إن الظروف التي أحاقت بـه ، والأحداث التي تتابعت بعد توليه منصب الخلافة ، هي التي دعتـــه إلى اختيار طريق الصلح دون سواه ، ويحسن بنا أن نجمل أهم الأسباب التي أدّت إلى الصلح في بنود :

١ — انعدام روح الثقة في أوساط الجيش الكوفي ، وتلاشي معنوياته العسكرية، نتيجة لتأثير الدسائس والإشاعات الكاذبة، التي بثها أعوان معاوية بين فصائل الجند .

٢ — خيانة عـــدد من الزعماء والقواد ورؤساء الأجناد ، ومراسلتهم معاوية بإظهار الولاء والطاعـة لحكمه ، واستعداد البعض لتسليم الإمام أسيراً له ، واطلاع الإمام على تلك الكتب والرسائل ، بواسطة الوفد الذي أرسله معاوية للإمام طالباً منه الصلح وحقن الدماء ، على حد زعمه !

٣ — فرار عدد وفير من الجند والقواد ، مما أدى إلى اختلال واضح في توازن القوى بين الجيشين .

٤ — إنقسام الجيش الكوفي إلى جناحين ، جنـــاح المدائن بقيادة الإمام الحسن ، وجناح مسكن بقيـادة قيس بن سعد بن عبادة ، مع بُعد المسافة بين المكانين ، مما أدى إلى تسلط معاوية وتحكمه في الموقف العسكري .

٥ – التمرد العام في المدائن ، وانتفاض الأمر على الإمام هناك ، ونهب متاعه ، وطعنه في خاصرته من قِبل أفراد جيشه ، نتيجة لإشاعة كاذبة عن مقتل قيس ، دسها معاوية بين فصائل الجيش ، من قبل بعض أعوانه .

٦ – الخليط الغير المتناسق مسلكاً وهدفاً ، الذي كان يتكوّن منه جيش الإمام .

٧ – تعذر اختيار الحرب في هذه المرحلة الدقيقة من المحنة ، لانعدام التكافؤ بين الطرفين ، إذا علمنا أن جيش الإمام في حساب الأرقام العسكرية يُعد خُمس جيش معاوية ، وهي نسبة متدنية ، تجعل النصر في جانب الإمام مستحيلاً .

٨ – عدم توفر الأسباب المعقولة للتضحية ، بل على العكس .. فإن التضحية لا تعود إلا بالنتائج العكسية .

والخلاصة : هي أن السبب الكلي لاتخاذ قرار الصلح ، إنهيار الجيش الكوفي ، وعدم صلاحيته للمواجهة ، مما قلب ميزان الموقف لصالح معاوية .

ما بعد الصلح

« وهكذا كان صلح الإمام الحسن مع معاوية عملية كشف رائعة ، لطبيعة الحكم الأموي ، وإفصاح عن واقع الروح العنصرية ، التي ترجع بأصولها إلى عهود الجاهلية الحمقاء » .

إنتهت فصول رواية الصلح، واستقل معاوية بالملك، ودانت له رقاب الأمة، وجاء هذا الانتصار الكبير للأموية ــ بحسبانه ــ فاتحة عهد جديد، سيسمح لمعاوية أن يحقق ما صبا إليه من قبل، من الديمومة الأموية في الحكم .

ولكن ما حسبه انتصاراً ، لم يكن سوى بداية للثورة الصامتة ، التي بذرها الإمام الحسن في أعماق الأمة ، لتنموا بعد ذلـك وتنفجر باللهب ، في لحظات الصحو المبدئي والرسالي في أفكار الثائرين من القادة، الذين أدركوا بعمق وروية، مسؤولياتهم إزاء المآسي التي ينوء بها كاهل الأمة .

وتبدأ فاعلية المعارضة الثـائرة ، من اللحظات التي تنكّر فيها معاوية لعهده وميثاقه ، بالوفاء بشروط الصلح .
وهذا أول الغدر .

ويستيقظ حس الثورة في أعمـاق بعض الرؤساء ، ويشيع همس خافت في الوسط العام ، الذي أذهلته مفاجـأة النتائج الغادرة .

وينقلب الهمس إلى حركة ، ومحاولة عمـل من أجل الثورة ، ويكاد الموقف المتفجر أن يلتهب، لولا أن تداركه الإمام الحسن، بطلب التوقف عن أي تحرك ، في خطابه المتقدم لسليمان بن صرد، وحجر بن عدي ، والمسيب بن نجبـه الفزازي ، وغيرهم من الزعماء الذين قدموا عليـه ، وطلبوا منه التحرك من جديـد ،

لاشعال نار الحرب على معاوية .

ولم يكن الإمام الحسن في موقفه هذا، بعيداً عن مسؤولياته إزاء الأمة ، بل هو يريد .. أن تنطلق شرارة الثورة من بركانها العميق بتحرك ذاتي، يضمن لها الاستمرارية في الحركة، والدوام في الإنطلاقة .

وأحس معاوية بلذة الاستقلال في الحكم ، وتلاشي القوى المعارضة أمام سلطانه ، فانطلق على طبيعته ، ليهز مشاعر الأمة ، ويجرح من كرامتها ، بما جبل عليه من عنصرية بغيضة ، وحقد لئيم .

وبدأ أول ما بدأ .. بمحاولة تصفية الجناح العلوي ، بتصفية أنصاره وأعوانه ، معتمداً لذلك كل وسائل العنف والتضييق ، فأسقطهم من الدواوين ، ورد شهاداتهم ، وتصاعد حقده .. بأن أمر عماله بقتلهم على التهمة والظنة ، وكانت المجازر الدموية ، التي رُوّعت بها الأمة ، واهتز لها كيانها .

ولم يكن هناك من مبرر لهذا كله ، إلا توطيد ملك أمية ، وتصفية كل ما من شأنه أن يقف في طريقه من العناصر المضادة، وهي تتمثل في تجمعين .

أحدهما : التجمع العلوي .

ثانيهما : الخوارج ، الذين لم يكونوا يمثلون بعدُ القوة التي

تهدد كيان الحكم ، ولذا لم يعطهم من الأهمية القصوى ما أعطاه للعلويين وأنصارهم ، الذين كانوا يمثلون قوة المجابهة العنيدة ، في قبالة الحكم الأموي ، فحاول استئصالهم بفنون من التنكيل والتعذيب ، من قتل وتشريد ، وسجن وتضييق ، وغير ذلك مما تفتقت عنه ملكاته العنصرية .

ولكن كل هذا .. لم يقف في وجه تصاعد المعارضة وتفاقم خطرها ، وقد بلغ العنف في إخلاص بعضهم لمبدئه ، أنه وقف متحدياً سلطان معاوية في مجلسه ، وبمحضر من أعوانه ومخلصيه ، كالأحنف بن قيس حين عرض معاوية أمر البيعة ليزيد ، وقد نقلنا لك في الفصل السابق كلماته الرائعة ، التي تعطينا الصورة المتكاملة عن قوة المعارضة وعنفها وصمودها .

وكثيراً ما نرى معاوية .. يتظاهر بالحلم والصفح عن التحديات الصريحة لهؤلاء الأبطال الأكفاء ، ولكنه في الواقع ليس حلماً ولا صفحاً ، وإنما كان ذلك خوفاً من حدوث بعض الثغرات الخطرة في حكمه ، لانتماء البعض منهم إلى بعض القبائل المرتبطة بحكم الشام ، والتي قد يتسبب من استعمال العنف معهم ، تحريك روح العصبية القبلية التي كانت متأصلة في القبائل العربية آنذاك او لإرتباط البعض منهم بقبائل في الأطراف ، قد يسبب تمردها حرجاً للحكم ، وتورطاً في فتن داخلية ، هو في غنىً عنها ، او لإرتباط البعض عنواناً ومركزاً بالأمة ، مما يسبب التعرض له

بسوء ، تحريك حس المعارضة للحكم ، وإثارة الصخب من حوله كما كان الحال في تجربة الحكم مع حجر واصحابه .

أو يكون الحلم والصفح لإعتبارات نفسية ــ اذا كان المورد قابلاً لذلك ــ فإن ترك المجال .. لكي يُفرغ القائل ما في نفسه من الأنفعالات ، دون ان تحدث هناك ردة فعل مماثلة من الطرف الآخر ، بل لا يرى إلا حلماً وصفحاً وعطاءً سخياً ، قد يؤدي إلى تهدئة روح الثورة فيه ، وحصرها في حدود ضيقة ، بعيدة عن مواطن الخطر .

ولم يكن معاوية بعيداً عن منطق الدهاء ، حينما استعاض عن حلمه المزعوم بالعنف والشدة ، في موقفه من حجر واصحاب حجر ، وعمرو بن الحمق الخزاعي ، وغيرهم من شهداء الأمة الأبرار الذين قتلهم ومثّل بهم .

لقد أراد معاوية ، أن يختبر مدى الإنفعالات التي قد تحدثها هذه المجازر وحمامات الدم الصاخبة ، التي ارتكبها بلا تأثم ، بين فصائل الأمة . وأفرادها ، وليرى قوة تأثير المعارضة في المجال العام .

وكانت التجربة قاسية ومرعبة ، وغير منتظرة للحاكم المتغطرس ، حيث التقت مع صوت المعارضة المقصودة بالإرهاب والمطاردة ، جميع الأصوات الأخرى المضادة لها في الأتجاه ، وحتى أم المؤمنين عائشة ، لم يسلم معاوية من نقدها اللاذع ،

واظهار انفعالها من هذه الأحداث الدامية ، فقد أثر عنها قولها حين بلغها قتل حجر :

« لولا أنا لم نغير شيئاً الا صارت بنا الأمور إلى اشد منها ، لغيرنا قتل حجر ، أما والله .. إن كان ما علمت لمسلماً حجاجاً معتمراً [1] »

ولما بلغها خبر حجر ، ارسلت عبد الرحمن بن الحرث إلى معاوية فيه وفي اصحابه ، فقدم عليه وقد قتلهم .

فقال له عبد الرحمن : أين غاب عنك حلم ابي سفيان ؟

فقال : حين غاب عني مثلك من حلماء قومي ، وحمّلني ابن سميّة فأحتملت [2] .

يقول المعلق في هامش ابن الأثير ، تعليقاً على جواب معاوية «هذا عذر غير واضح ، فلا تلم الواشي ولُم من أطاعه .. »

وحينما التقت عائشة بمعاوية ..

قالت له : أين كان حلمك عن حجر ؟

قال : لم يحضرني رشيد [3]

ويقول الحسن البصري في تهجينه افعال معاوية وقتله

---

(١) (٢) الكامل ابن الاثير ج ٣ ص ٢٤٢ .
(٣) الكامل ابن الأثير ج ٣ ص ٢٤٣

حجـــر :

« .. أربع خصال كنّ في معاوية ، لو لم تكن فيه إلا واحدة لكانت موبقة ، إنتزاؤه على هذه الأمة بالسيف حتى اخذ الأمر من غير مشورة ، وفيهم بقايا الصحابة وذوو الفضيلة ، واستخلافه بعده ابنه سكيراً خميراً ، يلبس الحرير ويضرب بالطنابير ، وادعاؤه زياداً ، وقال رسول الله ﷺ : الولد للفراش وللعاهر الحجر ، وقتله حجر ، فيا ويلاً له من حجر ، ويا ويلاً له من حجر وأصحاب حجر . [1] »

وكان الناس يقولون : أول ذل دخل الكوفة ، موت الحسن وقتل حجر [2] ..

وهل يا ترى غاب عن معاوية حلمه هنا كما قال لعائشة ؟ أم أنه خداع حاول معاوية تلبيس جريمته به ، وتحميل التهمة لزياد بن سميّة .

إن جريمة معاوية هذه ، كانت عملية اختبار قاسية للأمة ، ألبّت عليه العناصر المختلفة ، فحاول إبطال فاعليتها ، بإظهار

---

(١) (٢) الكامل ابن الأثير ج ٣ ص ٢٤٢ وذكره ابن ابي الحديد في شرحه مع اختلاف يسير ج١٦ ص ١٩٣

الحلم عن بعض عناصر المجابهة ، متحملاً قسوتها وعنادها ولكن ، على مضض ، فيكفيه ما لاقاه من المعاناة في قتله لحجر واصحاب حجر ، وغيرهم من الشهداء المؤمنين الصابرين .

وهكذا يحاول معاوية ، خنق عناصر الثورة ، بما يظهره من حلم وأناة ، وتحمل لقارص الكلام من سراتها وأبطالها .

ولكنه وهو يظهر ذلك ، لا يدع وسيلة من وسائل العنف ، للقضاء على هذه القوى الممعنة في العناد له الا ويرتكبها ، حين يرى أن الفرصة سانحة لذلك ، من دون أن يكون في ذلك أي إثارة للصخب من حوله .

إن حلم ابن أبي سفيان ، لم يكن حلماً ينطلق عن انسانيــة سليمة العنصر ، بل حلم من يعجز عن اعمال قدرته لأي سبب كان ، فيمتنع عن ارتكاب جريمته .

فهو قبل أن يرتكب أي عمل يُخضعه لحساب الربح والخسارة فيحلُم حيث تنحرف النتائج عن قصده ، وتكون الخســارة حتمية للعمل ، ويبطش حيث يكون الربح في جانب البطش .

ولقد ناقض معاوية نفسه في طبيعة سلوكه مع حجر واصحابه وأوضح لنا بذلك حقيقة سلوكه العام

كانت الجريمة التي دعت زياداً لتحريض معاوية على حجــر واصحابه ، هي ولاءهم لعلي وأبنائه ، وهي جريمة لا يغتفرهــا

الحكم لهم، خصوصاً مع تصلبهم وتجاهرهم، الذي هو بمثابة مواجهة صريحة للحكم، الذي يعتبر البراءة من علي وابنـائه وشتمهم، القاعدة الأساس التي يقوم عليها بنائه العنصري.

ويستشهد زياد على تلبسهم بهذا الجرم، مع تزويره افتعالاً تحركهم للثورة، بتجميع الجموع، واعداد الخطط لذلك، بأقطاب المصر، الذين ربما كانت شهاداتهم لم تؤخذ بمحض اختيارهم، بل بتأثير من سلطان زياد، وربما كان بعضها تزويراً، كما يظهر لنا من رسالة شريح بن هاني إلى معاوية، بعد أن اعتبره زياد أحد الشهود على هؤلاء، يقول شريح في رسالته:

« بلغني أن زياداً كتب شهادتي على حجر، وإن شهادتي على حجر، أنه يقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويديم الحج والعمرة، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، حرام الدم والمال، فإن شئت فاقتله، وإن شئت فدعه [1] .. »

ويدلنا على كذب دعوى زياد على حجر وأصحابـــه بأنهم تمردوا على الحكم، وجمعوا الجموع لإعلان الثورة، ما ذكـــره ابن الأثير قال:

« حبُس القوم في مرج عذراء، فوصل إليهم الرجلان اللذان الحقهما زياد بحجر وأصحابه، فلما وصلا سار عامر بن الأســود

---

(١) الكامل ابن الاثير ج ٣ ص ٢٤٠

العجلي إلى معاوية ليعلمه بها ، فقام اليه حجر في قيوده فقال له :

« أبلغ معاوية .. أن دماءنا عليه حرام ، واخبره انا قدأومنا، وصالحناوصالحناه ، وإنا لم نقتل احداً من اهل القبلة فيحل له دماؤنا ..[1] »

إذن .. ليس هناك من ذنب لحجر يستحق عليه القتل سوى ولايته المخلصة لعلي وأبناء علي ، وهو ما لا يطيقه معاوية ، بما يحمله من عنصرية وحقد .

بعد هذا نقول : إن حجر وأصحابه ، كانوا في نظر معاوية وعامله زياد ، يتلبسون بجرم واحد غير قابل للغفران في اعتبارهما وهو ولاية علي وابنائه .

فما الذي دعا معاوية لان يحلم عن البعض ، فيعفُ عن سفك دمه ، ويأخذ جانب العنف بالنسبة للبعض الآخر ، فلا يتورع عن قتله ؟

وأي سبب دعا معاوية لأخلاء سبيل البعض دون البعض الآخر ؟ أكان ذلك حلماً وانسانية ؟ أم أنه رعاية للعصبيات الاقليمية والقبلية ؟

يقول ابن الأثير بعد كلامه السابق :

---

(١) ابن الاثير ج ٣ ص ٢٤٠

« فدخل عامر على معاوية فأخبره بالرجلين ، فقام يزيد بن أسد البجلي ، فاستوهبه ابني عمه عاصم وورقاء ، وكان جرير بن عبد الله البجلي قد كتب فيهما يزكيهما ، ويشهد لهما بالبراءة مما شُهد عليهما ، فأطلقهما معاوية ، وشفع وائل بن حجر في الأرقم ، فتركه له ، وشفع ابو الأعور السلمي في عتبة بن الأخنس فتركه ، وشفع حمزة بن مالك الهمداني في سعد بن نمران فوهبه له ، وشفع حبيب بن مسلمة في ابن حويه فتركه له [1]

ولكن حجراً حين شفع به ابن عمه لم يشفعه به [2]، لأن ذلك سيعيقه عن القيام بتجربته في اختبار ردة الفعل ، التي سيتركها قتل حجر واصحابه في الوسط العام ، ليُحدد على ضوء ذلك سلوكه في مسيرة الحكم .

ثم يُقتل حجر مع بقية اصحابه ، الذين لم يكن لهم من يشفع بهم عند ابن أبى سفيان ..

هنا تظهر لنا حقيقة حلم معاوية ، وأنه مكر وخديعه ، لا حلم واناة ، كما يتصورها البسطاء السذج من الناس ، فهو يحلم حيث تكون في الحلم منجاة له من الوقوع في الحرج ، ويغيب عنه حلمه حين يأمن غائلة الفتنة .

---

(١) نفس المصدر السابق

(٢) نفس المصدر ص ٢٤١

وقد سبق ان سمعناه يبرر قتله لحجر واصحابه ، بأنه فعل هذا حينما غاب عنه حلماء قومه ، حيث لم يكن عند معاوية من يحذره من مغبة فعله هذا ونتائجه الوخيمة .

ولكن هذا لا يعدو عن كونه تبرير وقح ، لأبشع جريمة ارتكبها معاوية في حكمه ، وفي حسبانه أنه بهذا التبرير سيُهدأ من روع الأمة ، ويحد من استنكارها وتنفرها من حكمه الدموي الرهيب .

إن عمله هذا كما قلنا .. كان عملية اختبار قاسية للأمة ، أجراها معاوية ليُحدد بها سلوكه العام ، فكان أن انقلبت عليه النتائج ، وضلت عنه ضوابط الحساب .

وهكذا نرى ان معاوية قد اخفق في ضرب جيوب المعارضة واستئصالها ، بل كانت مطارداته وملاحقاته الضارية لها ، وحبك الخطط واحكامها للقضاء عليها ، عامل قوي لصمودها وعنادها ، وتكاثرها وانتشارها في شتى الولايات والأعمال ، وخصوصاً الكوفة ، التي عاشت أيام محنة دامية ، تحت نير حكم الدعي زياد ابن سميه ، ولاقت ما لاقت من بطشه ونقمته .

وهكذا كان صلح الإمام الحسن عليه السلام ، عملية كشف رائعة لطبيعة الحكم الأموي ، وإفصاح عن واقع الروح العنصرية ، التي ترجع باصولها إلى عهود الجاهلية الحمقاء .

وبهذا يكون الإمام في موقفه المسالم ، قد اعطى الأمـــة الكثير الكثير من نفسه ، في سبيل أن ينكشف لها واقع الزيف ، وتسقط الأقنعة عن الوجوه ، التي تلفعت بستار المكر والدجل والخداع .

الامام وأصحابه

« إنها الانفعالات المحمومة ، التي تدفع بالإنسان إلى ظلمات اليأس والقنوط ، عاشها أصحاب الإمام ع في اللحظات التي تم فيها قرار الصلح »

كان موقف اصحاب الإمام منه بعد الصلح، ينطلق من الشعور العميق بالمأساة، التي ألهبت فيهم مشاعر الألم واللوعة، من المصير التي ادت اليه تلك التطورات المفاجأة، والتي لم تكن لتمر في تصوراتهم وتقديراتهم لنتائج المعركة..

وقد كبُر عليهم أن يخرج الأمر من يد الإمام إلى معاوية، وتستوثق عرى الحكم لأمية، لتعود شريعة الجاهلية بجورها واثمها، تمتهن كرامة الأنسان، وتستحل النفس التي حرم الله من غير جرم وجريرة، بل ارضاءً لغرورها وحقدها، واشباعاً لجوعها الدائب للتسلط والحكم.

ولم يكن لدى هؤلاء الأصحاب الأطياب، اي غرض سيء فيما قالوه من كلمات جارحة، او ابدوه من استياء للنتائج المؤلمة، بل هي المأساة التي هزتهم، واخذت عليهم مشاعرهم، فذهل كل واحد منهم عن نفسه، وقد تمثلت امام عينيه بوادر المستقبل الكئيب، الذي ينذر بالعاصفة، التي ستحيل الأرض يباباً، وتعفي بلفحها ينابيع الخير، والمحبة والجمال.

انه الانسان حين ينفعل بالمأساة، وتلتف حول مشاعره ثعابين اليأس، يكاد يفقد القدرة على تحرك انفعالاته، فلا يعي

إلا والكلمات تنفجر باللهب ، تنطلق من اعماقه ، في لحظـــات ساخنة من الأسى والحزن .

ولكنه بعد ان يستعيد نفسه وترجع اليه القدرة على التحكم بانفعالاته ، يعود انساناً على طبيعته ، يفكر ، ويحـــاسب ، وينقد ، ويوازن .

وتهتز الأرض برعب تحت اقدام المخلصين من اصحاب الأمام، وتغيم الدنيا في اعينهم ، وهم يتمثلون امامهم المصير المظلم ، الذي ينتظر الأمة ، فقد امضى الأمام الحسن الصلح وترك عجلة الحكم ليديرها معاوية الموتور ، الذي عمل الكثير الكثـــير ، وانتظر الكثير الكثير ، وسفك الدماء المسلمة البريئة ، بلا تأثم ولا حراجة في سبيل ان يتفرد في الحكم ، ويتوفر على بناء ملك امـــية ، والثأر لتراتها من الأسلام .

لقد كبر على هؤلاء المخلصين، في لحظات من اليأس قاتمة، أن يفلت الزمام من يد أهله ، وتنهزم ــ في تصورهم ــ دولة الحق ، أمام ردة الباطل ، وينفلت سوط الضلال من مكمنـــه ، ليعمّق مأساة الإيمان على الأرض .

انها الأنفعالات المحمومة ، التي تدفع بالأنسان إلى ظلمـــات اليأس والقنوط عاشها اصحاب الإمام ، في اللحظات التي تم فيها قرار الصلح .

ولكن الحقيقة التي ادركها الأمام لم تملأ تصوراتهـــم في

اللحظات الاولى[1] بل لم يترك لهم انفعـــالهم بالمأساة ، فرصة التدبر والتروي في المصير المرعب الذي كان ينتظرهم ، وينتظر رسالتهم الحقة ، لو أن الإمام عدل في موقفه إلى الحرب ، إذاً لكانت النتائج حاسمة في طرف الخصم ، ولو على المدى البعيد.

---

(١) قال أبو الفرج الاصفهاني في مقاتل الطالبيين: اجتمع إلى الحسن(ع) وجوه الشيعة وا كابر أصحاب أمير المؤمنين يلومونه ويبكون إليه جزعـــاً مما فعله .

وقال المدائني : ان معاوية لما خطب الناس بالكوفة وقال في جمـــلة خطبته :

« كل شرط شرطته فتحت قدمي هاتين »

قال المسيب بن نجبة للحسن (ع) : ما ينقضي عجبي منـــك ، بايعت معاوية ومعك اربعون ألفاً ، ولم تأخذ لنفسك وثيقة وعقداً ظاهراً ، أعطاك أمراً فيما بينك وبينه ، ثم قال ما قد سمعت ، والله ما أراد بها غيرك قال : فما ترى ؟

قال : أرى أن ترجع إلى ما كنت عليه ، فقد نقض ما كان بينـــه وبينك فقال : يا مسيب . اني لو اردت بما فعلت الدنيا لم يكن معاوية باصبر عند اللقاء ، ولا اثبت عند الحرب مني ، ولكنني أردت صلاحكم وكـــف بعضكم عن بعض ، فارضوا بقدر الله وقضائه حتى يستريـــح بر ويستراح فاجر .

وفي جوابه لحجر بن عدي حينما واجهه بكلام فيه لوم جارح :

يا حجر ليس كل الناس يحب ما تحب ولا رأيه رأيك ، وما فعلت ما فعلت إلا ابقاء عليك والله كل يوم في شأن .

أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٢٧ .

لقد كانت تقديرات الإمام صائبة فيما توصل اليه من قرار ، فمضافاً إلى العوامل والتأثيرات النفسية العامة ، ومـــا لابس ذلك من احداث ومحن ، ادت إلى استحالة اتخاذ قرار آخر غير الصلح ، مضافاً إلى ذلك ، فقد حفظ الإمام للمعارضة قوتهـــا ونفوذها ، بالإبقاء على عناصرها الأساسية ، لتعرقـــل تنفيذ مخططات الخصم ، الرامية إلى القضاء على جوهر الأسلام وروحه ولترصد له اهدافه وغاياته الحاقدة وتفضحها في أوساط الأمة المسلمة ولتحفظ مبادىء الحق السليمة من ان تشوبها شائبة الضلال ، وتنحرف بها افكار الجاهلية الحمقاء .

كانت هذه إحدى عوائد الصلح الرائعة ، التي لمّح إليهـــا الإمام الحسن في بعض اجاباته لأصحابه ، حينما وقفوا منه موقف اللوم والعتاب ، فهو لا يريد مما فعل إلا البُقيا على هذه الثـــلة الطيبة من المخلصين المؤمنـــين ، ليكونوا الشعلة الهـــادية ، التي تنير الدرب ، حين تضلله غمائم النفاق والضلال ، وما أكثر ما جهد معاوية نفسه ، مستعيناً ببعض من باع نفسه للشيطان ، من شراة البغي والنفاق ، في سبيل ان يطفىء تلك الجذوة الملتهبة بوهج العقيدة والايمان الصحيح ، بما أوتي من دهاء ومكر ، ولكنه ما يفتوأ ان يعود خاسئاً يجر اذيال الخيبة ، بعد ان تبؤ محاولاته بالفشل والخسران .

فهو حين كان يضيّق الخناق ، ويشد الوثاق ، ويسد منافذ النجاة ، على معارضيه في المبدأ والحكم ، كأنه يدفـــع بهم إلى

مواطن القوة والصمود، فلم يُجدِه ما أظهره من العنف والشدة، بما له من سطوة وسلطان، وقدرة طاحنــــة، في كبت تلك الأصوات المدوية بكلمة الحق، في الأوساط العامة، وفي مجلسه الخاص هو بالذات، بحضور بطانة السوء، واعضاد البغي.

لقد كان معاوية بما فعله مع اصحاب الإمام، من قتـــل، وتشريد، وترويع، وتضييق، كأنما أخذ باعضادهم إلى شاهق، فقد تلفتت نحوهم عواطف الأمــــة ومشاعرها، لتتطلع بتوجع وألم، إلى نتائج الصراع ومآسيه، بين قوة البغي وسلطانـه، وصمود العقيدة والإيمان.

وينفذ سهم الحق صائباً في مرماه، حيث أخذ الكثيرون يتحسسون مواقع أقدامهم، حينما أخذت الأقنعـــة الزائفة، تنحسر عن الملامح الواقعية لوجه الحكم الزائف وبطانته، لتعمق بالرعب جراح الأمة، وتضاعف من آلامها.

ويضغط هذا الموقف الملتهب، على مواطىء أقدام معاوية، ليخفف من حدتها العمياء، ويتراجع الملك الموتور بعـض الشيء ولكن بعد ان لفحته حرارة الدم، المتصاعـدة من جراح حجر والشهداء أمثاله، من صحابة علي، وابناء علي.

وهل يجديه تبرير أو عذر.

لقد غاب عن معاوية مكره ودهاءه، في تلك اللحظات التي استسلم فيها لرواسبه الجاهلية، وعاد إلى طبيعته الأولى، وفي

حسبانه ان الرصد الذي كان يخافه ، قد استسلم امـــام قهره وسلطانه ، وجـــاء الوقت الذي كان يترقب حلوله ، ليثأر من الرسالة والرسول ، بالقضاء على أهل بيته وانصــارهم ، ثم بعد ذلك اطفاء جذوة الحق ، وطمس معالم الهدى ، وليس هــذا تجنٍ منا على معاوية ، بل هو نفسه الذي أفصح عنه ، فيحديثه مع المغيرة بن شعبة ، كما مر عليك سابقاً .

ولكن حسابات معاوية تلك، أخفقت في نتائجها ، واختلت موازينها، أمام تقلبات الأحـداث ، والأغراق بالعنف ، الذي سبب للحكم كثيراً من الحرج، والتورط فيما لم يدُر بحسبانه .

ولقد كان الإمام فيما اقدم عليه ، مقدراً للنتائج التي ستؤول إليها المرحلة التالية للصلح ، إذ لم تخفَ عليه دخائـــل معاوية ومشاريعه ، التي يهدف إليهـــا ، كما انه مقدر لردة الفعل التي ستثيرها خطى أمية ، الممعنة بالتحدي ، والعنــاد ، والتعـالي والشموخ .

لقد شاء الإمام للأمة ، ان تنفعل بالمأساة ، وتصطدم بالواقع عملياً ، لتعرف كيف تقرر مصيرها ، مع ذلك الحكم الطائش ، ولتعي بنفسها مواقع الحق والباطل ، بعيداً عـن الإيهامـات والتلبيسات .

انه لم يرضَ لحجر ، وأمثال حجر ، ان تذهب دمـــائهم الزكية هدراً ، في حرب خاسرة مع معاوية في مسكن ، حيث

المجال متسع لمعاوية ، ان يموّه على الأمة بأنهم قتلوا أنفسهم ،بعد ان دعاهم للصلح وحقن الدماء ، وجمع الكلمة ، فلم يستجيبوا ، وهناك الكثير الكثير من الرعاع ، ممن تنطلي عليهم هذه الخدعة فيتدينون بها ، وهناك الكثير الكثير من المؤرخين ، من يتلقى ذلك بالقبول ، ويجعله كوثيقة تاريخية ، يدعم بها موقف معاوية ، ويتخذها وسيلة للتنديد بموقف الإمام وصحابته ، محملاً اياهم مسؤولية الدماء البريئة ، التي اريقت نتيجة الصراع .

وهل سَلِم الإمام الحسن من اتهامات التاريخ المزيف بعد الذي فعل ؟

لقد الصقوا به بعض التهم ، تجنياً ، وحقداً ، ووضاعة ، ولؤماً ، انها تهم رخيصة ، دعا لها معاوية ، وروّجها قوالة السوء والكذب ، وتلقاها الحاقدون من كتبة التاريخ ، وسنعرض لبعضها في الفصل القادم من الكتاب .

ومن مهازل التاريخ ، ان يبرر البعض لمعاوية مواقفه من الإمام علي ، وخروجه عن طاعته ، وإراقته للدماء المسلمة البريئة ، بأنه اجتهد فاخطأ ، موجهاً ذلك بأنه صحابي ، والصحابة عدول ، لأن النبي قال : أصحابي كالنجوم ، بايهم اقتديتم اهتديتم [1] وغير ذلك من الأحاديث ، التي افتعلها القالة على لسان النبي ﷺ ، بدعوة من معاوية وبطانته ، ليبطل بذلك أثر الأحاديث ، التي

---

(١) تطهير الجنان واللسان لابن حجر الهيثمي ص ٣ .

وردت في فضل أهل البيت عليهم السلام، على لسان الخاصة والعامة .

وعليه فكل ما صدر عن معاوية ، من إراقـــة للدماء ، وازهاقٍ للنفوس ، واستهتارٍ بالدين، واستخفافٍ بالقيم ، وظلمٍ، وطغيانٍ ، ومكرٍ وخداعٍ ، تبرره له صحابيته ، حقاً انهـــا مهزلة ، وأي مهزلة . ؟

ولكن هناك من انصف التاريخ ، وحمّل معاوية وزمرتـــه مسؤولية تلك الدماء الزكية التي سفكها ، ارضاءً لحـــقده وعنصريته ، وجعل من دم حجر واصحابه وغيرهم من الشهداء ، الوثيقة التاريخية الدامغة ، على استهتاره وامتهانه لكرامة الدين، كما شاء لها الأمام الحسن ان تكون ..

لقد اراد الأمام ، أن يعطي للأمة وللأجيال المتعاقبـــة ، الصورة الواضحة للواقع النفسي لأمية ، التي انحرفـــت بها العنصرية عن جوهر الدين وروحه ، فاتخـــذت من الدين هدفاً لمراميها ، لأنه زرعة هاشم ، وفي ظل هديها نما وشب .

وكان للإمام ما اراد ..

ولكن هذا كله ، لم يكن ليخطر في تصورات الأصحـاب الذين هزتهم انفعالات المأساة في لحظـــات المحنة ، فما وعوا مـــا قالوا .

وهل يتصور ان يعمد حجر وقيس وغيرهما ، لمقابلة إمامهم بتلك الكلمات الجارحة ، لو أنهم كانوا بعيدين عن انفعالاتهم في

لحظات المحنة ، ولذا نراهم يبادرون إلى الصمت ، دون ان يعقبوا بشيء ، حينما كان يجيبهم ، بأنه لم يذل المؤمنين ، بل اراد الأبقاء عليهم ، لئلا تنطفيء جذوة الحق على الأرض ، وليكونوا لله على الناس حجة .

لقد كان معاوية يتمنى في قرارة نفسه ، لو تسنى له استئصال جذور هاشم ، وانصارها ، في حرب طاحنة مع جيش الأمام الحسن في مسكن ، ولكن الأمام فوّت عليه ذلك ، باجابته للصلح ، وتسليم الأمر له ، بعد ان خذلته الظروف ، وتجمعت من حوله عوامل المحنة .

وضاقت نفس معاوية بالتحديات الصريحة ، التي كان يُواجه بها من بعض اصحاب الأمام ، في مجلسه وغيره ، وربما بمحضر من اهل الشام ، ولكنه سوف لا يورط نفسه في تجربة اخرى مماثلة للتجربة القاسية التي مر بها في قتل حجر واصحابه وامثالهم من الشهداء ، ويكفيه من المعاناة ، ما لقيه من تجربته الأولى ، التي هدمت له كل ما كان قد بنى من احلام .

يقول التاريخ :

« أن عدي بن حاتم دخل على معاوية .

فقال له معاوية : ما فعلت الطرفات؟ يعني أولاده .

قال : قتلوا مع علي .

قال : ما أنصفك علي .. قُتل اولادك وبقي اولاده .

قال عدي : ما أنصفتُ علياً قتل وبقيتُ بعده .

فقال معاوية : اما انه قد بقيت قطرة من دم عثمان ، ما يمحوها الا دم شريف من اشراف اليمن .(يعني بذلك عدي).

فقال عدي : والله ان القلوب التي ابغضناك بها لفي صدورنا وان اسيافنا التي قاتلناك بها لعلى عواتقنا ، ولئن أدنيت الينا من الغدر فتراً ، لنُدنين لك من الشر شبراً ، وإنّ حز الحلقوم ، وحشرجة الحيزوم ، لأهون علينا من أن نسمع المساءة في علي ، فسلم السيف يا معاوية لباعث السيف .

فقال معاوية : هذه كلمات حكم فاكتبوها ، وأقبل على عدي محادثاً له ، كأنه ما خاطبه بشيء[1] .

وهل يطيق معاوية هذا التقريع من عدي في مجلسه او يستسيغه ، لولا أن وراء عدي اسيافاً حداداً ، تثير فتنة يمنية ، مع ما لعدي من المقام والشرف ، وسابق الصحبة ، وهل كان هذا حلماً من معاوية وصفحاً ؟ ولو كان : فلماذا لم ينعم به على حجر ، وامثال حجر ؟

ونظير هذا الموقف لعدي بن حاتم ، موقف سابق للأحنف

(١) مروج الذهب المسعودي ج ٣ ص ١٣ .

بن قيس ، في حديث اخذ البيعة ليزيد ، ومــــواقف اخرى لصعصعة بن صوحان وغيره ، الذين كانت مواقفهم هذه جهاداً مريراً ، تخوضه المعارضة العلوية بكل قوة وبسالة وصمود ، في دوامة من الإضطهاد والإمتهان والعنف ..

وهكــذا أتاح الإمام لصوت الحق ان يرتفع ، ليصفع عـز الضلال ومجده ، دون ان تكون للضلال قوة الرد .

اتهامات وتلفيقات

« واخيراً .. فإن للتاريخ كلمته الفاصلة في تعرية الوجوه التي تلفعت باقنعـــة الزيف والخداع والدجل ، ولن تصمد كلمة الباطل مهما كانت قوتها امام دعوة الحق ، بـــين يدي محكمة التاريخ ».

دعا معاوية فبادعا اليه بعد استقلاله بالسلطة ، وتفرده بالحكم إلى وضع الأحاديث واختلاقها وبثها في اوساط الأمة ، معتمداً في ذلك على ضعاف النفوس من الرواة ، وقوالة الكذب ، الذين لم يتورعوا عن الافتراء والدس على لسان النبي الأعظم ﷺ ، متوسلين بذلك إلى كسب رضا معاوية ، ووده ، ليغدق عليهم من عطاياه ومِنحه ، ما يشبعون به نهمهم ، ويسدون به جوع مطامعهم ، وسبق ان حدثنا سليم بن قيس ، فيما كتبه من وصف رهيب لشجون تلك المرحلة، التي ابتلي الأسلام فيها بتلك الزمرة الضالة ،التي باعت دينها للشيطان ، واشترت رضا المخلوق بسخط الخالق ، وماتت في اعماقها صوت الحق .

لقد طلب معاوية من عماله ، ان يدعو الناس للرواية في فضائل عثمان ومناقبه ، فلما اكثروا ، طلب منهم الكف عن ذلك ، والاكتفاء بما قيل ، داعياً اياهم للرواية في فضل ابي بكر وعمر ، فلما اكثروا ، طلب منهم الكف ، وجمع ما قيل ، وجعله في كتاب وزعه على الكتاتيب ، ليعلمونه الصبيان ، ويحفظونهم اياه ، وتزلف بعض الرواة للحاكم ، فرووا في فضله وفضل أبيه أبي سفيان ، روايات اثبتها بعد ذلك رعيل من الحفاظ ، وكتبة الحديث في كتبهم ، وطواميرهم ،ملتزمين بمضامينها ، جاعلين منها وسيلة للاعتذار عما صدر منه من العظائم

والبوائق [1] واليك بعضاً من هذه الروايات :

عن جابر : ان رسول الله ﷺ استشار جبريل في استكتاب معاوية فقال : استكتبه فأنه امين .

عن انس مرفوعاً: الأمناء سبعة ، اللوح ، والقلم ، واسرافيل وميكائيل ، وجبريل ، ومحمد ، ومعاوية .

عن أبي هريرة مرفوعاً : الأمناء عند الله ثلاثة ، أنا ، وجبريل ، ومعاوية .

عن واثلة مرفوعاً : ان الله ائتمن على وحيه جبريل ، وأنا ، ومعاوية ، وكاد ان يبعث معاوية نبياً ، من كثرة علمه ، وائتمانه على كلام ربي ، يغفر الله لمعاوية ذنوبه ، ووقاه حسابه ، وعلّمه كتابه ، وجعله هادياً مهديا وهدى به .

وغير ذلك من المهازل ، التي لم يخجل رواتها من إذاعتها ، وطرحها بين أوساط الأمة ، ومن شاء المزيد من الاطلاع على هذه الأكاذيب ، فمليه بكتاب الغدير للعلامة الأميني ج ١١ ص٧١ .

«قال عبدالله بن أحمد بن حنبل: سألت أبي عن علي ومعاوية ؟

فقال : إعلم ان علياً كان كثير الأعداء ، ففتش له أعداؤه

---

(١) يقرأ تطهير الجنان واللسان عن الخطور والتفوه بثلب سيدنا معاوية ابن ابي سفيان لابن حجر الهيثمي المكي.. وهو كتاب مملوء بالتعصب والتمويه وقد رد عليه في كتاب مستقل السيد محمد بن عقيل صاحب كتاب النصائح الكافية لمن يتولى معاوية .

عيباً فلم يجدوا ، فجاؤا إلى رجل قد حاربه ، وقاتله ، فأطروه كيداً منهم لعلي .. » [1]

وهكذا روّج معاوية لبضاعة الوضع ، والاختلاق ، بما تمكن به من جاه ، وسلطان ، وقهر ، وغلبة .

ولم يسلم أهل البيت عليهم السلام من تجني هؤلاء ، بما وضعوه من أحاديث ، وروايات ، وما لفقوه من اتهامات رخيصة ، ونسب باطلة ، وأكاذيب مفضوحة في حقهم ، ولم يتركوا حديثاً روته الرواة في مناقبهم وفضائلهم ، إلا ووضعوا نظيراً له في غيرهم ، وربما ينسبون الشيىء وردبهم ، لغيرهم ، كآية التطهير ، التي تواتر النقل بنزولها بهم ، فرووا أنها نزلت في أزواج النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وغير ذلك ، مما لا عناية لنا بذكره هنا .

وإنما الشيىء الذي يهمنا التعرض له هنا ، هو ما ذكره بعضهم ، وبنى عليه من تأخر ، من اتهام الإمام الحسن عليه السلام بأنه مزواج ، ومطلاق ، ونسبوا في ذلك كلمات لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام ، واتهامه أيضاً : بأنه صاحب جفنة وخوان وليس بصاحب حرب وطعان ، كغيره من فتيان قريش ، ونسبوا أيضاً كلمات لأبيه أمير المؤمنين عليه السلام ، لو وازنا بينها ، وبين الروايات التي وردت على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وابيه ، لأتضح لنا ان تلك الكلمات المزعومة ، ليست إلا من الخاريق التي دعا لها

---

(١) فتح الباري ج ٧ ص ٨٣ .

معاوية ، والمفتريات التي روّج لها ، وبذل في سبيلها الأموال والضياع .

أما حديث الزواج والطلاق فقد روى ابن أبي الحديد في شرحه عن أبي الحسن المدائني انه قال :

« وكان الحسن كثير التزوج ، تزوج من خولة بنت منظور الفزاريه ، وامها مليكة بنت خارجة بن سنان ، فولدت له الحسن بن الحسن ، وتزوج أم اسحاق بنت طلحة بن عبيد الله ، فولدت له ابناً سماه طلحة ، وتزوج أم بشر بنت أبي مسعود الأنصاري - واسم أبي مسعود عقبة بن عمر - فولدت له زيد بن الحسن ، وتزوج جعده بنت الأشعث بن قيس ، وهي التي سقته السم ، وتزوج هند ابنة سهيل بن عمرو ، وحفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، وتزوج امرأة من كلب ، وتزوج امرأة من بنات علقمة بن زرارة ، وامرأة من شيبان من آل همام بن مرة ، فقيل له : انها ترى رأي الخوارج ، فطلقها ، وقال : اني أكره ان أضم إلى نحري جمرة من جمر جهنم .

وقال المدائني : وخطب إلى رجل فزوجه وقال له : اني مزوجك ، واعلم إنك مَلق ، طلق ، غلق ، ولكنك خير الناس ، وارفعهم جداً وابا .

وقال أيضاً أُحصيت زوجات الحسن بن علي ، فكن سبعين

امرأة .. [١]

وروى أبو جعفر بن حبيب قال : قال علي عليه السلام لقد تزوج الحسن وطلق ، حتى خفت ان يثير عداوة . [١]

وروى أبو الحسن المدائني قال : تزوج الحسن بن علي هنداً بنت سهيل بن عمرو ، وكانت عند عبد الله بن عامر بن كريز ، فطلقها ، فكتب معاوية إلى أبي هريرة ، ان يخطبها على يزيد بن معاوية ، فلقيه الحسن عليه السلام .

فقال له : أين تريد ؟

قال : أخطب هنداً بنت سهيل بن عمرو على يزيد بن معاوية.

قال الحسن عليه السلام : اذكرني لها .

فأتاها أبو هريرة فأخبرها الخبر .

فقالت : إختر لي .

فقال : أختار لك الحسن .

فتزوجته ، فقدم عبدالله بن عامر المدينة فقال ، للحسن : ان لي عند هند وديعة ، فدخل إليها والحسن معه ، فخرجت حتى جلست بين يدي عبدالله بن عامر ، فرق لها رقة عظيمة .

فقال الحسن : ألا أنزل لك عنها ، فلا أراك تجد محللا خيراً

---

(١) شرح النهج ابن ابي الحديد ج١٦ ص ٢١ .

(١) شرح النهج ابن ابي الحديد ج ١٦ ص ١٢ .

لكما مني .

قال : لا ، ثم قال لهـــا : وديعتي ، فأخرجت سفطين فيهما جوهر ، ففتحها واخذ من أحدهما قبضة ، وترك الآخر عليها[1].

وروى أبو الحسن المدائني أيضاً قال ؟ تزوج الحسن حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، وكان المنذر بن الزبير يهواها ، فأبلغ الحسن عنها شيئاً فطلقها [2] .

ويذكر المؤرخون بعد هذا من الأولاد للحسن عليه السلام خمسة عشر ولداً فقط ، ولم يزيدوا على ذلك . [3]

هذا حصيلة ما ذكره أرباب السير ، عن كثرة زواج الحسن وطلاقه ، يرويه لنا أبو الحسن المدائـــني ، كما ورد في شرح النهج .

ولا يسعنا في مقام البحث والتمحيص ، إلا ان نقف وقفـة متأملة ، لنرى مدى صحة ما رواه المدائني لنا في هذا الصدد ، ولا ملزم لنا بالتسليم بما ذكره ، وتبريره بوجه هو أشد فضاعة من كثرة الزواج والطلاق ، كما فعله بعضهم[4] حيث اعتذر عن الإمام :

---

(١) نفس المصدر

(٢) نفس المصدر ص ١٣ ،

(٣) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٥ .

(٤) صلح الحسن آل ياسين ، وهـــذا الكتاب يعتبر من أجل الكتب التي درست موضوع الصلح دراسة شاملة استوفت جوانب الموضوع بدقة .

بأن السبب فيما ينسب إليه من كثرة زواجه وطلاقه ، أن بعض الناس ربما كان يطلق زوجته ثلاثاً ، بنحو لا تحل له ، إلا بعد ان تتزوج زوجاً غيره ، فيزوجها من الإمام ليطلقها بعد هذا ثم ليتزوجها هو بعد ذلك ، من دون ان يرى في ذلك أي غضاضة ، أو إخلال بالكرامة ، باعتبار أن الحسن سبط رسول الله وريحانته .

ويفترض المؤلف أن الإمام ، كان دوره دور المحلل لمن بانت عنه زوجته ، ولكن الإمام أجل من ان يعرّض نفسه لمثل هذه الوظيفة ، التي يأباها أوساط الناس ، فكيف بمن هو في مثل مقام الإمام ، وهي هفوة لمؤلف كتاب صلح الحسن ، لا نفهم لها مبرراً .

على ان مثل هذا ، لم ينسب لأخيه الحسين عليه السلام ، مع انه كان شريكه في شرف الانتساب إلى رسول الله ، وكلاهما سيدا شباب أهل الجنة ، وريحانتا النبي من الدنيا ، ولماذا الإمام الحسن وحده دون غيره ؟

ذلك ما سيتضح لنا وجهه فيما بعد .

فما ذكره المؤلف تبريراً أمر يرفضه الذوق ، ويعافه قلم البحث والتحقيق .

أما نحن فنلخص رأينا في الموضوع ضمن ملاحظات ، نسجلها تعليقاً على ما روي في ذلك :

١ ـ الذي ذكره المؤرخون من أسماء زوجات الإمام الحسن لا يتجاوز التسعة ، وهن اللاتي ذكرهن المدائني في روايته الأولى ، ويبقى لنا في ذمة التاريخ إحدى وستون زوجة مجهولة الاسم والنسب ، إذا أخذنا بالاعتبار روايته الثالثة ، من أنه أحصيت زوجات الحسن بن علي فكن سبعين امرأة ، ومن البديهي أن الإمام الحسن ليس بذلك الإنسان المغمور شرفاً ، ونسباً ، وعنواناً ، ومركزاً ، حتى لا يعرف الناس من حياته إلا النزر القليل ، وهل يتصور أن الإمام يتزوج في حياته سبعين امرأة دون أن يكون لهن أو لأكثرهن ذكر أو خبر في كتب التاريخ ، خصوصاً وأن زواج الإمام من بيت أو قبيلة ، يُعد من المفاخر التي تتناقلها الألسن ، وتشمخ بها النفوس ، وأي صهر أشرف وأعظم من ابن بنت رسول الله ، وسلالة علي ، ولا نفهم أي مغزى من كتمان أسماء من لم يُعرف من زوجاته المزعومة ، مع توفر الدواعي لذكرها ، خصوصاً وأن بني أمية كانوا يعدون عليه أنفاسه ، ويترصدون خطاه ، فلو كان شي من ذلك ، لكان وسيلتهم الفريدة للعيب عليه ، والتنقيص من مقامه .

٢ ـ والذي يؤيد كذب هذه الروايات المفتريات أن معاوية في مراسلاته للإمام قبل الصلح لم يعب عليه بشي من ذلك ، بل ولم يشر إليه من قريب أو بعيد ، ولو كان شيء من ذلك لعابه به وشنّع عليه من خلاله .

٣ ـ كما لم يُسمع من أحد ممن خاصم الإمام ، ونصب له

العداوة ، وتهجم عليه ، كعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، والوليد بن عقبة ، واضرابهم ، شيء من ذلك مع انهم كانوا من أشد الناس عليه ، وأسبقهم للنيل منه ، لما لاقوه من تنقصه لهم ومصارحته لهم بمثالبهم ، ومخازيهم وأي عيب يعاب بـه المرء أشنع من أن يكون عشير النساء ، وصريع الشهوة .

وربما يكون هـذا دليلاً قوياً على كذب تلـك الروايات واختلاقها .

٤ — لو قارنا بين نسبة أولاد الإمام إلى نسبة أزواجه عدداً لكانت ضئيلة جداً ، وهي واحد من خمسة ، هذا لو جعلنا لكل أم ولداً واحداً ، مع أن بعض الأمهات كان لها منـه ولدان أو أكثر ، وعليه فتتضائل النسبة إلى واحد من ستة ، أو سبعة ومن الغريب ! أن أكثر نساء الامام كانت مبتلاة بـداء العقم ، ولا تلد منهن إلا واحدة من خمس ، على أكـثر التقادير ، وهو فرض ، لا يمكن أن تلعب الصدفة فيه دورها إلا بنسبة الواحد في ألوف الملايين ، وهو فرض شاذ يمتنع وقوعه عادة ، ولبيان ذلك نقول :

لو تزوج إنسان امرأة ، يكون احتمال عقمها بنسبة عشرة في المائة ، أما لو تزوج اثنتين ، فيكون احتمال عقمها بنسبة خمسة في المائة ، أما لو تزوج ثلاثة ، فأن النسبـة تنخفض إلى عشرة بالألف ، أما لو تزوج أربعة ، فإنها تنخفض إلى نسبة واحد في

عشرة آلاف ، وهكذا كلما تصاعد عـدد الأزواج ، ينخفض معدل النسبة إلى الأقل ، حتى تصل إلى حد يبعد معـه الاحتمال بل يصبح ممتنعاً عادة .

وأي صدفة هذه، أن تكون إحدى وستون امرأة يتزوجها الإمام الحسن ع ولا يكون لها قابلية الولادة .؟

وعلى هذا ، فلم يثبت تاريخياً بعد البحث ، من زوجـات الإمام إلا تسعة ، وهن اللاتي ذكرهن المدائني وغيره بأسمائهن ونسبهن ، وهو عـدد لا يستدعي هذا التشنيع والتقول، فالنبي ﷺ كان له تسعة نساء ، وما أكثر من تزوج بمثل هـذا العدد أو أكثر من الصحابة وغيرهم .

وأما الطلاق .. فلم يحدثنـا التاريخ إلا عن اثنتين ، طلقهما الامام لداع اقتضى ذلك .

إحداهما حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر ، التي كان يهواها المنذر ، فوشى بها للامـام بشيء لم يذكره التـاريـخ والظاهر أنه أمر لا يناسب الامام معه أن يبقيها في عصمتـه ، بل ويكفي في ذلك نفس الوشاية ، التي قد تصبح بعد ذلـك وسيلة للتشهير .

الثانية : امرأة من بني شيبان من آل همام بن مرة ، وكان طلاقه لها بعد ان قيل له : بانها ترى رأي الخوارج ، وقد اعتذر

الإمام عن طلاقها ، بأنـه يكره أن يضم إلى نحره جمرة من جمر جهنم .

ولم يحدثنا التاريخ عن ثالثة طلقها الإمام فيمن طلـق ، ولو كانت ، فطلاقها وطلاق الخامسة ، لا يستحق هذا التشنيـع ، وهذا التقول ، وربما يكون للإمام عذره في ذلك ، كما هو الحال بالنسبة لزوجتيه اللتين طلقها .

إذن .. أين يكون موقع تلك الاتهامات ، بأن الإمام كان مزواجاً مطلاقاً .. ؟

وأين هنّ زوجاته السبعين ؟

وأين هنّ مطلقاته الكثيرات ؟

وهل كان معاوية وعملائه ومن اشترى منهم دينهم ، ليتورعون عن اختلاق الأكاذيب ، وتنسيق الافتراءات ، على الإمـــام الحسن ؟

إنهم لم يجدوا فيه ما يعيبونه ، فزينت لهم أحقادهم أن يصنعوا من المعايب ما ينالون به من مقام الإمام ومركزه ، فلفقوا مهزلة المزواج المطلاق ، ونسبوا لأبيه الإمام علي عليه‌السلام ، قوله : لقد تزوج ولدي الحسن وطلق حتى خفت أن يثير عداوة ، وغير ذلك من النسب المفترات .

ومن هنّ من النساء اللائي تزوجهن الإمـــام الحسن عليه‌السلام ،

وطلقهن على عهد أبيه حتى يقرضه بهـــذا التقريض المفترى على لسانه ؟..

ومن هم هؤلاء الذين تزوج منهم الإمام وطلق ؟ ولماذا سكتوا عن ذلك ؟ ولا أقل من إظهار مشاعرهم في خسارتهم لمثل هــذا الصهر العظيم .

إنهم ما كانوا ، ولا كن بناتهم ولم يكن هناك زواج أو طلاق بل هي تلفيقات حبكتها امية بلؤمها ولكنها لم تحسن إحكامها.

والذي يتلخص لدينا من هذه الملاحظات ان اتهام الإمام بكثرة الزواج والطلاق لم تظهر إلا بعد وفاته ، فما عابه أحــد بذلك في حياته وحتى ألد أعدائه ، فما ذكر من كلام مزعـوم للإمام علي عليه السلام فيما يخص هذا الموضوع ليس إلا افتراءً وتلفيقاً أريد به إظهار الإمام الحسن بصورة من لا أهلية له لتسنم منصب الخلافة وإدارة دفة الحكم فمن كانت همه شهوته أيُّ صلاحيـــة تبقى له في تصريـــف شؤون الدولة ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم .

ثم تطلع علينا عصابة الوضع بعد ذلك بنغمـــة أخرى من تلفيقاتها فقد وضعت على لسان الإمام أمير المؤمنين كلمــات في حق ولده الإمام الحسن فقد روى أبو جعفر بن حبيب عن المسيب بن نجبة وقال :

سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : أنا أحدثكم عني وعـــن

أهل بيتي أما عبدالله بن أخي فصاحب لهو وسماح ، وأما الحسن فصاحب جفنة وخوان فتىً من فتيان قريش ولو قد التقت حلقتا البطان لم يغن عنكم شيئاً في الحرب ، وأما أنا وحسين ، فنحن منكم ، وانتم منا .. »[1]

ولعلنا لا نحتاج إلى كثير عناء في فهم نقطة الضعف في هذه الرواية، بعد أن وعينا الأسباب التي تعقبت بالصلح، وادركنا السر في توقف الإمام الحسن عن مواصلة مسيرته لاسقاط حكم معاوية .

إذ لم يكن ما حدث ، منطلقاً من وجهة النظر القائلة بأن الإمام كان غير راغب ذاتاً في اقتحام ويلات الحرب ، والتسبب في إراقة الدماء ، بل هو إلى الدعة أميل منه إلى الحرب .

وإنما كان منطلقاً من واقع التطورات المفاجئة ، التي قلبت ميزان الموقف ، وتحكمت في تحديد مواقع خطى الإمام ، فإما القتل ، أو الأسر ، أو الهزيمة ، أو الصلح .. وكان الحل الأخير ، هو الطريق الأسلم الذي تفرضه ظروف الموقف العسكرية والرسالية .

والذي ينبىء عنه اختيار الإمام لقرار الصلح ، أنه كان يتمتع بوعي فريد لموقفه ، إزاء تقلبات الظروف في المجال الحربي ولم يكن ليتسرع بتحكيم انفعالاته العاطفية في اللحظات الحرجة التي يحتاج فيها القائد إلى مزيد من الوعي والدقة .

---

(١) شرح النهج ج ١٦ ص ١١ .

وإلا فإن الإمام قد أثبت في موقفه من معاوية ، وصموده أمام تهديداته وارجافاته ، أنه القائد المحارب ، الذي لا يُرهبه النزال ، ولا يُخيفه لمعان السيوف وتلاعب الأسنة .

لقد عبىء جيشه ، ونظم فرقه ، ووزع قواده ، وتحرك نحو عدوه بتصميم وقوة ، ليُكمل رسالة أبيه في ضرب الشام قاعدة الضلال والفساد .

ولكن غدر الكوفة وخذلانها ، وانهزامها عن نصرته أوقف مسيرته الزاحفة عن إكمال شوطها ، وتحقيق أهدافها ، وكان أن وجدت عصابة الوضع والتلفيق مجالها الواسع ، في تنسيق المفتريات والأكاذيب ، للنيل من المقام الشامخ المنيع للإمام ، إرضاءً لحقدهم ، وتبريداً لغلوائهم .

لقد كان عليهم أن يفتشوا عن وسيلة أخرى للدس ، لو أن الإمام كان يملك جيشاً منيعاً محصّناً من الدخائل ، وعوامل الانهزام ، ومنضبطاً بأوامر القيادة وتوجيهاتها .

ولا أدري كيف وضع قالة السوء هذه الكلمات المفترات على لسان أبيه أمير المؤمنين ؟ وفي أي حرب من حروبه عليه السلام لم يسارع ولده الإمام الحسن لخوض غمارها ، ومنازلة الأبطال والأقران في ساحها ، ولكنه عليه السلام لم يكن ليأذن لولده وفلذة كبده ، ولأخيه الإمام الحسين ، في مباشرة القتال ، وقد رأى ابنه الإمام الحسن يوماً يتسرع إلى الحرب في صفين فقال عليه السلام :

« إملكوا عنى هذا الغلام لا يهدّني، فإني أنفس بهذين - يعني الحسن والحسين - على الموت ، لئلا ينقطع بهما نسل رسول الله ﷺ .. » [1]

ويكفينا في تكذيب تلك الكلمات المفتريات ، ما رواه ابن أبي الحديد ، من ان محمد بن الحنفية حين زلزل بحملاته المتلاحقة مواقف أصحاب الجمل ، قالت الأنصار :

« يا أمير المؤمنين ، لولا ما جعل الله تعالى للحسن والحسين عليهما السلام ، لما قدّمنا على محمد أحداً من العرب .

فقال عليه السلام .. أين النجم من الشمس والقمر ، أما إنه قد أغنى وأبلى ، وله فضله ، ولا ينقص فضل صاحبيه عليه ، وحسب صاحبكم ما انتهت به نعمة الله تعالى به .

فقالوا يا أمير المؤمنين : إنا والله لا نجعله كالحسن والحسين ، ولا نظلمهما له ، ولا نظلمه - بفضلهما عليه - حقه .

فقال علي عليه السلام : أين يقع ابني من ابنَي بنت رسول الله ﷺ ؟ [2]

---

(١) ابن أبي الحديد شرح النهج ج ١١ ص ٢٥ .
(٢) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٤٥ .

بهذه الكلمات الصافية الغيورة ، يدفع الإمام عن ولديه الحسن والحسين عليهما السلام ما ربما يتطرق من الوهم ، في اذهان البعض من شهود الحروب ، بأفضلية محمد على أخويه وتقدمه عليهما في الشجاعة والبطولة وخوض غمار النزال ، وبعد هذا أين سيكون موقع تلك الكلمات المفتريات في حق ولده الإمام الحسن عليه السلام ، بعد ان نقرأ كلماته هذه ؟

على ان التاريخ يذكر لنا في بعض صفحاته المشعة مواقفاً رائعة ، للإمام الحسن عليه السلام ففي البحار عن المناقب قال :

« دعا أمير المؤمنين عليه السلام محمد بن الحنفية يوم الجمل فأعطاه رمحه وقال له : أقصد بهذا الرمح قصد الجمل ، فذهب فمنعه بنو ضبة ، فلما رجع تناول الرمحَ منه أخوه الحسن عليه السلام وقصد به الجمل فطعنه به ورجع ، وعلى رمحه أثر الدم فتغمّز وجه محمد من ذلك فقال له أمير المؤمنين : لا تأنف فإنه ابن النبي وانت ابن علي » (١)

وكم مرة شارك الإمام الحسن عليه السلام أباه في حملاته يوم الجمل يقول ابن أبي الحديد :

وزحف علي عليه السلام نحو الجمل بنفسه ، في كتيبته الخضراء من المهاجرين والأنصار ، وحوله بنوه حسن

(٣) منهاج البراعة ج ٣ ص ١٧٨ .

وحسين ومحمد عليهم السلام ، ودفـــع الراية إلى محمد .. »[1]

ولم يغب عن ذكاء هؤلاء الوضاعين ، أن يفتعلوا موقفاً غـير لائق للإمام الحسن مع أبيه أمير المؤمنين ، يكون منطلقاً لهذه الكلمات ، واساساً ترجع إليه ، فقد نقل بعض المؤرخـــين .. حواراً مفتعلا بين الإمام الحسن وأبيـــه ، بعد واقعة التحكيم وتحرك الخوارج .

فقد قال الحسن لابيه في نبرة عتاب :

يا أبي ...

أشرت عليك حين حوصر عثمان ، ان تخـــرج من المدينة ، فان 'قتل ، 'قتل وأنت غائب عنها .

وأشرت عليك حين قتل عثمان ، وراح الناس اليك وغدوا ، وسألوك أن تقوم بالأمر ، ألا تقبـله حتى تأتيك البيعة من جميـع الآفاق .

واشرت عليك حين بلغك خروج الزبير وطلحـة بأم المؤمنين عائشة إلى البصرة ، أن ترجع إلى المدينة وتقيم في بيتك .

فلم تقبل رأيي في شيء من ذلك .

---

(١) ابن أبي الحديد ج ١ ص ٢٥٧ .

فأجابه الإمام قائلاً :

« أما خروجي حين حوصر عثمان ، فما كان ذلك ممكناً ، فقد كان الناس أحاطوا بي كما أحاطوا بعثمان ، وأما انتظاري طاعة جميع الناس من جميع الآفاق ، فان البيعة لا تكون الا لمن حضر الحرمين من المهاجرين والأنصار ، فاذا رضوا وبايعوا، حق على جميع المسلمين الرضا والبيعة .

وأما رجوعي إلى بيتي والقعود فيه ، فانني لو قبلت لكان ذلك غدراً بالأمة ، وخيانة لها ..[1]»

وحقاً إنه حوار منسق ، يدل على براعة في التركيز ، وبُعد في النظر ، بايجاد شقة بعيدة الغور ، بين موقف الإمام وموقف ولده .

ولنا أن نقف موقف الحساب ، من هذه النقاط الثلاث التي نسبت للامام الحسن في إشارته على أبيه .

فقد تحدثت الرواية .. أن الحسن قد اشار على أبيه في ترك المدينة عندما فُرض الحصار على الخليفة عثمان ، فإن قُتل ، يكون قتله في حال غيابه ، بنحو يكون بعيداً عن مسؤولية دمه

(١) وقد روى قريباً من هذا ابن أبي الحديد في شرحه ج ١ ص ٢٢٦ .

عند الناس ، ولا يقع بعدها تحت طائلة الأتهـام ، كما وقع ذلك فيما بعد ، وتسببت في حروبه الثلاث ..

ولكن هل يُفترض أن الأمام الحسن كان غائباً عن الموقف ؟ وكان يجهل دور ابيه في مواقع الفتنة .

الم يكن دور الإمام دور المصلح والوسيط المقبـــول لدى الفريقين ؟

ولو فرط أن الإمام تغيب عن المدينة ، افهل يدعه عثمان والثائرون يسكن لعزلته ، ويهدأ بعيداً عن مواطن الصراع .؟ وكل منهما يرى فيه المنقذ الوحيد للموقف ، ويطلب منه بحكمته ان يفرض الحل ..[1]

وهل كان هناك غيره في المدينة من أعطى من نفسه الكثير في سبيل تهدئة الفتنة ؟

أو ليس هو الذي عرّض ولده الحسن هو نفسه للقتل ،حين أوقفه على باب دار عثمان ليدافع عنه ، ويحميه من نقمة الثائرين.[2]

أوليس هو الذي أرسل اليه بالماء، بعد أن منعه الثائرون عنه وعمن هو معه في الدار .. ؟ [3]

وهل يتصور ان الإمام الحسن يطلب من أبيه الإعـتزال في هذه الفتنة ، والوقوف موقف المتفرج من البعيد ، ويترك الناس

(١-٢-٣) ابن حجر الصواعق ص ١١٥ .

في حالة ضياع ، ليس لهم من يفزعون اليه في تطويق الفتنة وإخمادها .

وهل يتصوران يطلب من ابيه الأعتزال ليفسح المجال لطلحة والزبير انيلعبوا بمصير الأمة ، ويديروا أمر الناس كما تملي عليهم مطامعهم واحقادهم ؟

وهل غاب عن الإمام الحسن ــ ومعاذ الله من ذلك ــ أن أباه لم يتهمه احد بأنه باشر قتل عثمان ، وإنما اتهموه بالتحريض افتراءاً وبهتاناً ، وأنه يحمي القتلة ؟

أفهل كان خروج الإمام من المدينة وتغيبه عنها ، سيبعده عن تهمة التحريض وحماية القتلة ؟

ولا نعتقد ان الإمام الحسن كان في غفلة عن واقع الفتنة ، وحراجة موقف ابيه في تلك المرحلة الدقيقة ، وهو الذي عاش معه جميع فترات حياته ، ورافق مسيرتها ووعى اسرارها .

وتحدثنا الرواية في النقطة الثانية ، عن إشارة الإمام الحسن على ابيه بعدم قبول البيعة حتي تأتيه الموافقة من جميع الأقطار .

ولكن هذه الأشارة بعيدة عن سلوك الإمام الحسن نفسه ، فقد قبل هو بالبيعة بعد ابيه ، مع علمه باختلاف الكلمة عليه ، ولو من جانب معاوية الذي لم يكن ليخضع لأبيه حتى يخضع له ويبايع .

ثم لماذا يشير على ابيه بهذه النقطة المفتعلة على لسانه ، مع انه لم يحدث ان توقف احد من الخلفاء قبله في قبول البيعة حتى تأتيه الموافقة من سائر الأقطار، بل سُنة الخلافة جرت على البيعة من قبل المهاجرين والأنصار اولاً ، ثم الكتابة لسائر الأقطار بالبيعة للخليفة المنتخب .؟

وقد شهد هو نفسه بيعة الخلفاء الثلاثة قبل ابيه ، فما الذي عرض للأمام الحسن حتى يشير على ابيه بهذه النقطة .

أليس هو القائل حينما دعاه ابوه ان يرقى المنبر ويتكلم في امر الحكمين عمرو بن العاص وعبد الله بن قيس فقال فيما قال :

وقد اخطأ عبد الله بن قيس ، اذ جعلها لعبد الله بن عمر ، فأخطأ في ثلاث خصال : واحدة : انه خالف اباه اذ لم يرضه لذلك ، ولا جعله من اهل الشورى ، واخرى : انه لم يستأمره في نفسه ، وثالثة : ان لم يجتمع عليه المهاجرون والأنصار الذين يعقدون الأمارة ، ويحكمون بها على الناس »(1) »

وان كلامه لصريح ، في تكذيب هذا الافتعال الرخيص .

وتحدثنا الرواية في النقطة الثالثة .. عن اشارته على ابيه بعدم قتال طلحة والزبير ، والخروج إلى البصرة

ولكن هذه الأشارة يُكذب صدورها عنه ، ويثبت افتعالها

---

(١) العقد الفريد ج ٤ ص ٣٥٠ .

موقفة حين بعثه ابوه لاستنفار اهل الكوفة وتعبئتهم للقتال ..

يقول التاريخ :

قال ابو مخيف :

« لما دخل الحسن وعمار الكوفة ، اجتمع اليهما الناس فقام الحسن فاستنفر الناس ، فحمد الله ، وصلى على رسوله ثم قال :

« أيها الناس : انا جئناكم ندعوكم إلى الله والى كتابه وسنة رسوله ، والى افقه من تفقه من المسلمين واعدل من تعدّلون ، وافضل من تفضّلون ، واوفى من تبايعون ، ومن لم يعيه القرآن ، ولم تجهله السنه ولم تقعد به السابقة ، إلى من قربه الله ورسوله قرابتين ، قرابة الدين وقرابة الرحم ، إلى من سبق الناس إلى كل مأثرة ، إلى من كفى الله به رسوله والناس متخاذلون ، فقرب منه وهم متباعدون ، وصلى معه وهم مشركون ، وقاتل معه وهم منهزمون وبارز معه وهم محجمون ، وصدقه وهم يكذبون ، إلى من لم تُرد له ولا تكافأ له سابقة ، وهو يسألكم النصر ، ويدعوكم إلى الحق ، ويأمركم بالمسير اليه ، لتؤازروه ، وتنصروه على قوم نكثوا بيعته ، وقتلوا اهل الصلاح من اصحابه ، ومثّلوا بعماله ، وانتهبوا بيت ماله ، فاشخصوا اليه رحمكم الله ،

فمروا بالمعروف وانهوا عن المنكر ، واحضروا بما يحضر به الصالحون [1] .

فهو عليه السلام يخاطب أهل الكوفة ، ويستنهضهم للقتال مع أبيه ، بهذه الكلمات الصريحة ، التي تعطينا الصورة الواضحة عن موقف الإمام الحسن عليه السلام من أبيه ، وانسجامه التام مع روح أبيه ودعوته ، فهو يرى ان أباه أوفى من بايعه الناس للحق ، وان دعوته هي دعوة الحق ، ونصرته هي نصرة الحق ، وان النهوض معه معروف ، والتقاعس عنه منكر .

ولو وازنا بمقياس المنطق السليم ، بين تلك الكلمات الغير المسؤولة التي افتراها الكذَبة على لسان الإمام الحسن في حواره مع أبيه ، وبين خطابه هذا ، لثبت لدينا بما لا يدع مجالاً للشبهة ، ان سلوك الإمام مع أبيه ، ووعيه لتطورات الأحداث ، يستحيل معه صدور تلك الكلمات منه ، وانها لا شك مفتعلة على لسانه .

ولعل من افتعل هذا الحوار ، كان يرمي في افتعاله له إلى مرمى بعيد القعر ، انه يريد بذلك ليوهن موقف الإمام أمير المؤمنين ويطعن في سياسته ، ويبرر موقف أعدائه ، ومن وقف منه موقف الخذلان .

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ١١ .

أما بالنسبة للنقطة الأولى ، فيقصد من افتعالها على لسان الإمام الحسن ، وضع الإمام علي في قفص الاتهام ، في دعوى قتل عثمان ، وتأكيد موقف معاوية منه ، وان وجوده كان له الأثر الكبير في تصاعد النقمة على الخليفة ، وعدم دفاعه عنه بقوة كان سبباً في تجاوز الثائرين في نقمتهم حد المعقول ، وقتلهم عثمان ، حتى أن ولده أحس بذلك ، فخاف من سوء النتائج ، وحذره من بقائه في المدينة ، وطلب منه التغيب حتى لا تقع الواقعة وهو حاضر هناك .

واما بالنسبة للنقطة الثانية : فيقصد من افتعالها أيضاً الطعن في خلافة الإمام بعدم اجتماع كلمة المسلمين عليه وقد تنبه لذلك ولده فطلب منه التريث في قبول البيعة حتى تأتيه الموافقة على إبرامها من الأقطار وتجتمع الكلمة .

واما بالنسبة للنقطة الثالثة : فيقصد منها تبرير موقف من تخاذل عن نصرة الإمام وخذّل الناس عن الخروج معه كأبي موسى الأشعري واضرابه ، وبيان ان الخلاف لم يقتصر على مثل هؤلاء ، بل هو أول ما صدر عن ولده الإمام الحسن عليه السلام ، فيكون لهؤلاء قليل من العذر ، وباب ينفذ منه من يشاء الدفاع عن موقفهم وتبرئة ساحتهم .

والخلاصة إنهم أرادوا بافتعال هذا الحوار ، إيجاد هوة

سحيقة بين الوالد وولده ، وفصل موقـف كل منهما عن موقف الآخر ..

واخيراً فإن للتاريخ كلمته الفاصلة في تعرية الوجوه التي تلفعت بأقنعة الزيف والخداع والدجل ، ولن تصمد كلمة الباطل مهما كانت قوتها أمام دعوة الحق ، بين يدي محكمة التاريخ .

مواقف هادفة

« ويحدثنا التاريخ» عن مواقف للإمام رائعة هزم فيها خصومه في محاورات كلامية لاذعة ، يستطيع المؤرخ أن يسجلها كوثائق تاريخية ، يدرس من خلالها الواقع النفسي لهؤلاء ، ويحدد على ضوئها ابعاد شخصياتهم »

حاول معاوية وبطانة السوء من اهله وأعوانه ، الحط من مقام الإمام الحسن بعد الصلح ، والتركيز على إظهاره للناس بمظهر غير اللائق لتسنم منصب الخلافة ، بتلفيق التهم تارة ، وبتنقيصه أخرى ، ولكنهم كانوا يعودون بالخزي والمذلة ، لِمَا يدمغهم به من فضح لواقعهم ، وتعرية لاصولهم ، وكشف لعوراتهم ، التي لم تكن لتخفى على مثل الإمام ، وهو الخبير بتاريخهم المشحون بالمساوىء والزيف .

ويحدثنا التاريخ ، عن مواقف رائعة للإمام ، هزم فيها خصومه ، في محاورات كلامية لاذعة ، جروه إليها ، يستطيع المؤرخ أن يسجلها كوثائق تاريخية يدرس الباحث من خلالها الواقع النفسي لهؤلاء ، ويحدد على ضوءها أبعاد شخصياتهم ، وسنعرض هنا على سبيل السرد ، لبعضٍ من تلك المواقف الرائعة ، التي نقلها لنا حفظة التاريخ .

يروي المدائني فيقول :

لقي عمرو بن العاص الحسن عليه السلام في الطواف .

فقال له : يا حسن ، زعمت أن الدين لا يقوم إلا بك .

وبابيك ، فقد رأيت الله أقامه بمعاوية ، فجعله راسياً بعد ميله ، وبيناً بعد خفائه ، أفرضي الله بقتل عثمان ، أو من الحق أن تطوف بالبيت كما يدور الجمل بالطحين ، عليك ثياب كغرقىء[1] البيض ، وانت قاتل عثمان ، والله انه لا لمّ للشّعث ، واسهل للوعث ، أن يوردك معاوية حياض أبيك .

فقال الحسن عليه السلام : أن لأهل النار لعلامات يعرفون بها ، الحاداً لأولياء الله ، وموالاة لأعداء الله ، والله إنك لتعلم أن علياً لم يرتب في الدين ، ولم يشك في الله ساعة ، ولا طرفة عين قط ، وأيم الله لتنتهينّ يابن أم عمرو أولأ نفذن حضنيك بنوافذ أشد من القعضبية[2] ، فإياك والتهجم عليّ ، فإني والله من قد عرفت ، لست بضعيف الغمزة ، ولا هش المشاشة[3] ، ولا مريء المأكلة وإني من قريش كواسطة القلادة ، يُعرف حسبي ، ولا أدعى لغير أبي ، وانت من تعلم ويعلم الناس ، تحاكمت فيك رجال من قريش ، فغلب عليك جزارها ، ألأمهم حسباً ، واعظمهم لؤماً ، فإياك عني ، فإنك رجس ، ونحن أهل بيت الطهارة اذهب الله عنا الرجس وطهرنا تطهيراً .

---

(١) الغرقىء : القشرة الملتزقة ببياض البيض .

(٢) القعضبية : الأسنة ، منسوبة إلى قعضب اسم رجل كان يعمل الأسنة في الجاهلية .

(٣) المشاش في الأصل : رؤوس العظام

فأفحم عمرو ، وانصرف كئيباً .. » [٣]

فالإمام لا يمكن أن ينسحق تحت تأثير تلك التهجمات المعادية ، بل هو حينما يتكلم ويجيب ، فإنما يتطلع إلى خصمه من الفوق ، وهو يعرف من أين يأتيهم ، وكيف يخنق الكلمات في حناجرهم ، لتصبح حشرجة تضيق فيها صدورهم كبتاً وحنقاً ..

وفي موقف آخر ، حاول معاوية أن يسخر من الإمام ، بدعوته للخطبة وفي تصوره أن الإمام سيخفق في موقفه ، ويقعد به عيّه عن مخاطبة الناس ، ولكنه أخيراً سخر من نفسه ، وندم على عجالته ، وهل يتصور ذلك في حق من تربى في حجر الفصاحة ، ورضع من ثدي البلاغة ، وهل ورث العيّ عن جده رسول الله ﷺ الذي هو أفصح من نطق بالضاد ؟ ، أم عن أمه فاطمة ؟ أم عن أبيه علي ، الذي يعتبره التاريخ سيد الفصاحة والبلاغة ؟

يروي المدائني فيقول :

« سأل معاوية الحسن بن علي ، بعد الصلح أن يخطب الناس ، فامتنع فناشده أن يفعل ، فوضع له كرسي ، فجلس عليه ثم قال :

الحمد الله الذي توحد في ملكه ، وتفرد في ربوبيته ، يؤتي الملك من يشاء ، وينزعه عمن يشاء ، والحمد لله الذي أكرم بنا

(٣) ابن أبي الحديد شرح النهج ج ١٦ ص ٢٧ .

مؤمنكم ، واخرج من الشرك أولكم ، وحقن دمـــاء آخركم ، فبلاؤنا عندكم قديماً وحديثاً أحسن البلاء، أن شكرتم أو كفرتم.

أيها الناس : أن ربّ علي أعرف بعليٍّ حين قبضه إليـه ، ولقد اختصه بفضل لم تعتدوا بمثله ، ولم تجدوا مثل سابقتـه ، فهيهات هيهات ! طالما قلّبتم له الأمور حتى أعلاه الله عليـــكم وهو صاحبكم ، وعدوكم في بدر وأخواتها ، جرّعكم رنقا وسقاكم علقا ، وأذل رقابكم ، واشرقكم بريقكم ، فلستم بملومين على بغضه وايم الله لا ترى أمة محمد خفضاً ما كانت سادتهم وقادتهم في بني أمية ، ولقد وجه الله إليكم فتنة لن تصدروا عنها حتى تهلكوا ، لطاعتكم طواغيتكم ، وانضوائكم إلى شياطينـــكم ، فعند الله احتسب ما مضى وما ينتظر من سوء دعتكم ، وحيف حكمكم .

ثم قال : يا أهل الكوفة، لقد فارقكم بالأمس سهم من مرامي الله ، صائب على أعداء الله ، نكال على فجّار قريش ، لم يكن آخذاً بحناجرها ، جاثماً على أنفاسها ، ليس بالملومة في أمر الله ، ولا بالسروقة لمال الله ، ولا بالفروقة في حرب أعـــداء الله ، أعطى الكتاب خواتمه وعزائمه ، دعاه فأجابه ، وقاده فاتّبعه، لا تأخذه في الله لومة لائم ، فصلوات الله عليه ورحمته ـ ثم نزل .

فقال معاوية : أخطأ عَجِـلٌ أوكاد ، وأصاب مُثبت أوكاد، ماذا أردت من خطبة الحسن .. » (١)

---

(١) ابن أبي الحديد . شرح النهج ج ١٦ ، ص ٢٨ .

ويحق لمعاوية أن يغص بريقه ، ويفرغر بحقده ، ماذا أراد من خطبة الحسن ؟ انه أراد أن يفضح فافتضح وان يسخر فسُخر منه ، ولقد حدد الإمام في خطابه هذا للأمة مصيرها بعد استيلاء بني أمية على السلطة ، وانذرها بالمآسي التي سينفجر بها واقع الحكم .

وهناك موقف آخر .. ولعله من أروع ما نقله التاريخ من مواقف الإمام ، فقد اجتمع لدى معاوية أربعة من أعمدة حكمه ، ومروّجي دعوته ، وهم : عمرو ابن العاص ، والوليد بن عقبة بن أبي معيط ، وعتبة بن أبي سفيان ، والمغيرة بن شعبة وطلبوا منه إحضار الإمام ، لكي يعيبوه وينالو منه ، بعد ما بلغهم عنه قوارص ، وساءهم التفاف الناس حوله ، واجتماعهم إليه ، يلتمسون منه عطاء العلم والدين ، فيردون منهله ظماءا ، ويصدرون منه رواءا .

يحدثنا التاريخ : بأن معاوية رفض أن يرسل إليه ، وقال :

« لا تفعلوا .. فوالله ما رأيته قط جالساً عندي ، إلا خفت مقامه وعيبه لي وقال : انه ألسن بني هاشم .. »

فعزموا عليه بأن يرسل إليه .

فقال : ان بعثت إليه لأنصفنه منكم .

فقال ابن العاص : اتخشى ان يأتي باطله على حقنا ..؟!

قال معاوية : أما إني أن بعثت إليه ، لآمرنه أن يتكلم

بلسانه كله ، واعلموا إنهم أهل بيت ، لا يعيبهم العائب ، ولا يلصق بهم العار ، ولكن اقذفوه بحجره ، تقولون له : ان أباك قتل عثمان ، وكره خلافة الخلفاء قبله .

ثم أرسل إلى الإمام من يدعوه ، فحضر ، فأكرمه معاوية واعظمه ، وقال له :

إني كرهت أن أدعوك ، ولكن هؤلاء حملوني على ذلك ، وان لك منهم النصف ومني ، وإنا دعوناك لنقررك ان عثمان قتل مظلوماً ، وان أباك قتله ، فاجبهم ، ولا تمنعك وحدتك ، واجتماعهم ، ان تتكلم بكل لسانك .

فتكلم عمرو بن العاص .. فذكر علياً ، وتجاوز في سبه وشتمه ، ثم ثنى بالحسن وعابه واغرق في الخدشة ومما قاله :

« .. يا حسن، تحدث نفسك ان الخلافة صائرة اليك ،وليس عندك عقل ذلك ولا لبه وإنما دعوناك لنسبك انت واباك .. »

ثم تكلم الوليد بن عقبة : فشنع وابان عن عنصريته ، ونال من بني هاشم .

ثم تكلم عتبة بن ابي سفيان : فافصح عن حقده ولؤمه ، ومما قال :

« .. يا حسن .. كان ابوك شر قريش لقريش ، اسفكه لدمائها ، واقطعه لأرحامها طويل السيف واللسان ، يقتل الحي

ويعيب الميت ، واما رجاؤك الخلافة ، فلست في زندها قادحاً، ولا في ميزانها راجحاً »

ثم تكلم المغيرة بن شعبة ، فشتم علياً وقال :

« والله ما اعيبه في قضية بخون ، ولا في حكم بميل ، ولكنه قتل عثمان ، ثم سكتوا ، فتكلم الإمام ومما قال :

اما بعد يا معاوية ، فما هؤلاء شتموني ، ولكنك شتمتني ، فحشاً ألفته ، وسوء رأي عُرفت به ، وخلقاً سيئاً ثبتّ عليه ، وبغياً علينا عداوة لمحمدوآله ، ولكن اسمع يا معاوية واسمعوا فلأقوان فيك وفيهم ما هو دون ما فيكم .

ثم اخذ في المقارنة بين مواقف ابيه ، ومواقف معـــاوية وابيه ، فقال :

انشدكم الله .. هل تعلمون ان الذي شتمتموه صلى القبلتين ، وانت يا معاوية بهما كافر ، وبايع البيعتين بيعة الفتح وبيـــعة الرضوان ، وانت باحداهما كافر وبالأخرى ناكث .

وانشدكم الله : هل تعلمون انه اول الناس ايمانا ، وانـــك يا معاوية واباك من المؤلفة قلوبهم ، تسرون الكفر ، وتظهرون الأسلام ، وتستمالون بالأموال ، وانه كان صاحب راية رســول الله ﷺ يوم بدر ، وان راية المشركين كانت مع معاوية ومــع أبيه ، ثم لقيكم يوم احد ، ويوم الأحزاب ، ومعــــه راية رسول الله ﷺ ومعك ومع ابيك راية الشرك ، وفي كل ذلك يفتح الله

له ، ويفلج حجته ، وينصر دعوته ، ويصدق حديثه ، ورسول الله ﷺ في تلك المواطن كلها عنه راضٍ ، وعليك وعلى ابيك ساخط . »

واخذ عليه السلام في تعداد فضائل ابيه وما ورد فيه من الأحاديث على لسان رسول الله ﷺ ومواقفه العظيمة ، التي نصر بها الدين ، واذل بها المشركين ، ثم قال :

« وجاء ابوك على جمل احمر يوم الأحزاب ، يحرض الناس ، وانت تسوقه واخوك عتبة هذا يقوده ، فرآكم رسول الله ﷺ فلعن الراكب والقائد والسائق »

« وانت يا معاوية ، دعا عليك رسول الله لما اراد ان يكتب كتاباً إلى بني خزيمة فبعث إليك ، فنهمك إلى يوم القيامة فقال : اللهم لا تشبعه »

ثم اخذ في بيان بعض مواقف ابيه مع رسول الله ﷺ والمواطن السبعة التي لعن فيها النبي ﷺ ابا سفيان ، وبعد ان انهى خطابه لمعاوية ، التفت إلى عمرو بن العاص فقال :

واما انت يا ابن النابغة ، فأدّعاك خمسة من قريش ، غلب عليك الأمهم حسباً ، واخبثهم منصباً ، وولدت على فراش مشترك ، ثم قام أبوك فقال : انا شانيء محمد الأبتر ، فانزل الله فيه ، ان شانئك هو الأبتر ، وقاتلت رسول الله في جميع المشاهد وهجوته ، وآذيته بمكة وكدته ، وكنت من اشد الناس له

تكذيباً وعداوة .

ثم خرجت تريد النجاشي ، لتأتي بجعفر واصحابه ، فلما اخطأك ما رجوت ورجعك الله خائباً ، واكذبك واشياً ، جعلت حدك على صاحبك عمارة بن الوليد ، فوشيت به إلى النجاشي ، ففضحك الله ، وفضح صاحبك ، فانت عدو بني هاشم في الجاهلية والأسلام .

وهجوت رسول الله ﷺ بسبعين بيتاً من الشعر فقال : اللهم اني لا اقول الشعر ولا ينبغي لي ، اللهم العنه بكل حرف الف لعنة ، واما ما ذكرت من امر عثمان ، فأنت سعّرت عليه الدنيا ناراً ، ثم لحقت بفلسطين ، فلما اتاك قتله ، قلت : انا ابو عبد الله اذا نكأت قرحة ادميتها ، ثم حبست نفسك إلى معاوية وبعت دينك بدنياه ، فلسنا نلومك على بغض ، ولا نعاتبك على ود ، وبالله ما نصرت عثمان حيا ، ولا غضبت له مقتولا ، »

ثم ذكر له من الشعر ، ما ينبىء عن عداوته للنبي ﷺ حينما رجع من الحبشة فانبأه ، والتفت عليه السلام إلى الوليد ، فقال له :

« فوالله ما الومك على بغض علي ، وقد قتل اباك بين يدي رسول الله ﷺ صبراً ، وجلدك ثمانين في الخمر لما صليت بالمسلمين سكران »

« وسماك الله في كتابه فاسقاً ، وسمّي امير المؤمنين مؤمناً ،

حيث تفاخرتما ، فقلت له : اسكت يا علي فأنا اشجع منك جناناً ، واطول منك لساناً ، فقال لك علي : اسكت يا وليد ، فأنا مؤمن ، وانت فاسق ، فانزل الله تعالى في موافقة قوله « افمن كان مؤمناً كمن كان فاسقاً لا يستوون » ثم انزل فيك على موافقة قوله « ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا »

ثم ذكر عليه السلام شعراً في الواقعة ، وقال له :

« وما انت وقريش ، انما انت علج من اهل صفورية ، واقسم بالله ، لأنت اكبر في الميلاد ، واسن ممن تدعي اليه »

ثم التفت إلى عتبة بن ابي سفيان ، وقال له :

وأما أنت يا عتبة .. فوالله ما أنت بحصيف فاجيبك ، ولا عاقل فأحاورك واعاتبك ، وما عندك خير يرجى ، ولا شر يتقى ، وما عقلك وعقل أمتك الاسواء وما يضر علياً لو سببته على رؤوس الأشهاد ، واما وعيدك اياي بالقتل ، فهلا قتلت اللحياني إذ وجدته على فراشك ، فقال فيك نصر بن حجاج :

يا للرجال وحادث الأزمان ولسبة تخزي أبا سفيان
نبئت عتبة خانه في عرسه جبس لئيم الأصل في لحيان

« وكيف ألومك على بغض علي ؟ وقد قتل خالك الوليد مبارزة يوم بدر ، وشرك حمزة في قتل جدك عتبة ، وأوحدك من أخيك حنظلة في مقام واحد » .

ثم التفت إلى المغيرة بن شعبة ، وقال له :

واما أنت يا مغيرة ، فلم تكن بخليق أن تقع في هذا وشبهه ، وإنما مثلك مَثلُ البعوضة ، إذ قالت للنخـــلة استمسكي فإني طائرة عنك ، فقالت النخلة : هل علمتُ بك واقعة عليّ ، فأعلم بك طائرة عني ، وان حد الله عليك في الزنا لثابت ، ولقد درأ عمر عنك حقاً ، الله سائله عنه ، ولقد سألتَ رسول الله ﷺ هل ينظر الرجل إلى المرأة ، يريد أن يتزوجها ، فقال : لا بأس بذلك يا مغيرة ، ما لم ينو الزنا ، لعلمه بأنك زانٍ .

واما فخركم علينا بالإمارة ، فإن الله تعـــالى يقول « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

ثم قام الحسن عليه السلام ، فنفض ثوبــه وانصرف ، فتعلق عمرو بثوبه وقال: يا أمير المؤمنين ، قد شهدت قوله فيّ ، وانا مطالب له بحد القذف .

فقال معاوية : خل عنه ، لا جزاك الله خيراً .. فتركه .

فقال معاوية : قد انبأتكم انه ممن لا تطاق عارضته ،ونهيتكم ان تسبوه فعصيتموني ، والله ما قام حتى أظلم عـــليّ البيت قوموا عني ، فلقد فضحكم الله ، واخزاكم بتركـــكم الحزم ،

وعدولكم عن رأي الناصح المشفق .. »[1].

وينتهي هنا الحوار الفريـــد ، الذي ذكرناه بطوله ، رغم اختصارنا له ، واحتفاظنا بالنقاط الأساسيّة الهامة ، التي يهمنا ان نضعها بين يدي القــارىء ، ليتعرف على الملامح الواقعيــة لتلك الزمرة المتسلطة ، التي تنكرت لكل القيم الاخلاقيـــة ، وسلكت طريق الشيطان .

وبهذا الحوار أعطى الإمام للمعارضة زخماً جديداً لفاعليتها ، حيث كشف للأمة ، عن الواقـــع المرير الذي اكتنف الحكم الإسلامي ، بتسلط هذه النماذج المنحرفة في أصولها ؟ والمنفعلة برواسبها الجاهلية ، والتي لا يمثل عندهــا الإسلام ، إلا الوسيلة الفريدة للتسلط على رقاب الناس ، وتلافي النقائص الذاتية ، التي قدر لهم أن يرزحوا تحت عبثها البغيض .

واثبت الإمام لهؤلاء ، انه لا يزال يقف في موقفه الصامد ، الذي انطلق منه في صراعه مع المواجهة الأموية ، وإن الجأتـــه ظروف المحنة ، إلى وضع السيف في غمده وتخطي مرحلة الحرب ، فإن كلمة الحق الصارخة ، التي تصم أذان الباطل ، لا يمكن أن

---

(١) أعيان الشيعة ج ٤ ق ١ ص ٥ ٣ ونقلها أيضاً ابن أبي الحديـــد في شرحه ج ٦ ص ٢٨٥ ٢٩٤ / عن كتاب المفاخرات للزبير بن بكار .

يدعها تموت في زحام ارجافات الضلال .

وهكذا ينطلق الإمام في خطاه الرسالية ، التي هي امتداد لخطى جده الرسول الأعظم ﷺ وعليه تقع مسؤولية حفظ المبادىء الأصيلة ، التي جاءت من أجلها الرسالة ، ولترتفع كلمة الله على الأرض .

واخيراً ...

لعل النتائج التي حفلت بها هذه الدراسة ، كانت وافية إلى حد ما ، ولعلنا لم نألو جهداً في تفسير بعض الظواهر العامة ،التي كان لها الأثر الكبير في تقييم المواقف وتحرير بعض الغموض فيها والذي اثار كثيراً من التساؤلات ، حول السبب في اختيار الإمام الحسن ، لقرار الصلح .

ومن الضروري ، ان نشير هنا ، إلى ان القارىء ، ربما يلاحظ بعض القسوة في النعوت والأوصاف ، التي كنا نضفيها على بعض العناصر ، حين نعرض اليها خلال البحث .

وليعلم ان هذا ، لم يكن تجنياً منا او تحيزاً ، بل ان طبيعة البحث تقتضي ذلك ، ويفرضه السلوك العام ، والخاص ، الذي كانت تنتهجه تلك العناصر ، في مسيرة الأحداث .

وقد حرصنا على ان يكون سلوكنا في الدراسة ، سلوكاً علمياً ، يعتمد تحليل المواقف ، على ضوء الأحداث وملابساتها ،

بنحو يوصلنا إلى النتائج ، التي هي اكثر قربا للواقع ، بعيداً عن العصبيات والألتزامات المسلكيه ، لئـــلا يتقوقع البحث ، في اطار مذهبي ضيق .

وللقارىءبعد هذا انيختار ،بعد ان يجرد نفسه من التزاماته الخاصة ، ويفترض ان المشكلة حدث غريب عنها ، ليتسنى له الحكم بموضوعية ، ولئلا تتوقف النتائج لديه ، في حـــدود تلك الالتزامات المعينة ،لينحرف به البحث عن الحكمالصواب

ومن الله استمد العون والتوفيق .

بيروت ١٤ شوال المكرم سنة ١٣٩٢

محمد جواد

استدراك

ذكرنا سهواً في صفحة (٤٠) أن عبد الرحمن بن ملجم المرادي كان أحد الأفراد الذين أفلتوا من جيش الخوارج في النهروان ، ولكن الظاهر أنه كان من المحاربين إلى جانب الإمام، وبعد رجوعه انحاز إلى جانب الخوارج ، وكان من أمره ما كان .

مصادر الكتاب

القرآن الكريم

نهج البلاغة

شرح النهج ـ ابن ابي الحديد

الإرشاد ـ المفيد

الغدير ـ عبد الحسين الأميني

الإمامة والسياسة ـ ابن قتيبة الدينوري

النصائح الكافية ـ محمد بن عقيل

المحاسن والمساوىء ـ البيهقي

الصواعق المحرقة ـ ابن حجر الهيثمي

تطهير الجنان واللسان ـ إبن حجر الهيثمي

فتح الباري ـ ابن حجر الهيتمي

الإصابة ـ ابن حجر العسقلاني

مروج الذهب ـ المسعودي

الملاحم والفتن ـ علي بن طاووس

الفصول المهمة ـ ابن الصباغ المالكي

مقاتل الطالبيين ـ أبو الفرج الإصفهاني

تاريخ الخلفاء ـ السيوطي

تاريخ ابن الأثير

تاريخ الطبري

تاريخ ابن عساكر

تاريخ ابن كثير

تاريخ اليعقوبي

اسد الغابة ـ ابن الأثير

حياة الحيوان ـ الدميري

صلح الحسن ـ راضي آل ياسين

اعيان الشيعة ـ محسن الأمين

منهاج البراعة ـ حبيب الله الخوئي

المحتويات

صدر عن دار المثقف المسلم
ايران / قسم

المؤلف	اسم الكتاب
عبد الهادي الفضلي	١- في انتظار الامام
محمد امين زين الدين	٢- العفاف
السيد الشهيد محمد باقر الصدر	٣- منهاج الصالحين
الدكتور داود العطار	٤- موجز علوم القرآن
احمد البهادلي	٥- محاضرات في العقيده الاسلاميه
محمد جواد فضل الله	٦- صلح الامام الحسن
جلال العالم	٧- قادة الغرب

<u>سيصدر قريبـــــــــــــا</u>

	١- دور الشيعه في تطور
عبد الله النفيسي	٢- العراق السياسي الحديث
محمد امين زين الدين	٣- من افقه القرآن
محمد حسين المظفر	٤- ميثم التمار
الامام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء	صحائف الابرار في وظائف الاسحار



ايـران